ميشيل لكروا

عبادة المشاعر



ترجمة د. أمين كنون

أفريقيا الشرق

عبادة المشاعر

المؤلف : **ميشيل لكروا**
المترجم : **د. أمين كنون**
عنوان الكتاب : **عبادة المشاعر**
رقم الإيداع القانوني : 2016 MO2408
ردمك : 0-20-670-9954- 978
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
• المطبعة: الهاتف : 04 95 25 22 05 / 13 98 25 22 05
الفاكس : 20 25 29 0522
• النشر والتصفيف : 39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء
الهاتف : 54/53 67 29 22 05
الفاكس : 72 38 48 22 05
البريد الإلكتروني : E. mail : africorient@yahoo. fr
www.afrique-orient.com
facebook : afrique orient

ميشيل لكروا

عبادة المشاعر

ترجمة د. أمين كنون

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة



أفريقيا الشرق

مقدمة

هناك مراحل في التاريخ تعرف استيقاظا للمشاعر كما تستيقظ الأميرة النائمة في حكاية شارل بيرو الخرافية، وهذا ما حدث في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وكان وراء انطلاق الرومانسية. هناك العديد من المؤشرات تدل على أننا بصدد الدخول في مرحلة مماثلة. فلا يكاد يمر أسبوع دون أن يشهد الرأي العام انقلابا بسبب حادثة، أو كارثة، أو مجزرة فظيعة، أو أن يلتهب بسبب انتصار رياضي. أحداث كموت الأميرة ديانا، قضية ديترو[1]، انتصار الزرق (المنتخب الفرنسي) في كأس العالم لكرة القدم سنة 1998، وفي كأس أوربا لكرة القدم سنة 2000؛ خلفت موجات ارتدادية قوية تُظهر فورة المشاعر التي تحكم نفسيتنا الجماعية.

عندما لا تعطي المستجدات الآنية حصتها من الأحداث الدرامية، تحل محلها الثقافة التنشيطية، حيث تشكل السينما والقصص الخيالية وألعاب الفيديو والعروض الضخمة والصور المركبة، خزانا ضخما للمشاعر. لقد أصبحت المشاعر أداة للتسويق

1- قضية إجرامية اتهم فيها مارك ديترو بالقتل والاغتصاب في حق عدد من الأطفال والمراهقين (المترجم).

بين أيدي المتحكمين في أنشطتنا الترفيهية، الذين يستغلونها من أجل التأثير فينا بطريقة معينة، فيمزجون بين الهلع والمفاجأة والحزن والغضب والارتياح والتعاطف والدموع والضحك، في لعبة من التناوب تحبس الأنفاس.

المشاعر أصبحت كذلك طقسا، كما يظهر في عيد «هالووين» (وهو احتفال سنوي للظرفاء المرعبين)، وبتعمقنا أكثر فإنه يمكننا القول بأن التيارات الاجتماعية لعصرنا الحالي هي بمثابة تطلعات لتجديد الحياة الشعورية؛ إنها تعبر عن الحاجة لإضفاء صبغة عاطفية قوية على تواجد الإنسان في العالم. ولهذا، فهل يمكن، مع بعض التحفظ، اعتبار موقف أنصار البيئة إحياء لمشاعر الخوف والإخلاص تجاه الطبيعة «السحرية». الممارسات الدينية الجديدة فتحت المجال مجددا للغموضية والخشوع الزائد وحالات الترانس[2] Transe. حركة العصر الجديد[3] New Age تدعو إلى اندماج حميمي مع الكون وتجعل الإحساس أساسا للمعرفة. كل ما هو مخالف للعادة، كل ما هو سري وخفي يخلق حالة من الحماس المتزايد الناتج، جزئيا، عن الأحاسيس القوية التي يولدها. التراث والذكريات تحيي الحنين إلى الماضي والشغف. التطور الذاتي يحثنا على «تحرير وإدارة طاقاتنا الشعورية». أما بالنسبة للحركات الجمعوية والانتمائية والطوائف المختلفة التي تتكاثر، فإن شعبيتها نابعة من فسحها المجال لأفرادها التكتل داخل مجموعات ذات

2- حالة من الوعي المتغير تنتج عن بعض الأساليب الخاصة من الرقص الدوراني أو الموسيقى الإيقاعية... (المترجم)

3- حركة روحانية غربية نشأت في القرن [illegible]، تشكل مبادئها خليطا من القيم والمعتقدات الدينية المختلفة... (المترجم)

كثافة عاطفية عالية. إذا كان المجتمع المعاصر يعود للعشائرية فهذا راجع لكوننا لا نريد فقط أن نعيش مجتمعين، بل وننفعل أيضا مجتمعين.

هذه العودة للمشاعر تشكل في نفس الوقت ثروة وخطرا. ثروة، لأنها تمتص المبالغة في العقلانية، وتمكن من تخفيف الضغط الحاصل بسبب العلوم التقنية والتنظيمات التي تطبع الحضارة، حيث أنه من المفيد التعطيل المؤقت للتصور العقلي الضيق الذي يطبع الإنسان المعاصر «أموسابيانس Homo Sapiens». وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن المشاعر هي في قلب المراجعة التي تجري حاليا لصورة الإنسان. تحت تأثير علم الأحياء العصبي، ظهرت أنثروبولوجيا جديدة، كردة فعل مناهضة للحالة النفسية لسنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي، التي كانت ترى في المشاعر خللا في السلوك وفعلا ضائعا وإعاقة. هذه الأنثروبولوجيا الجديدة أعادت الاعتبار للمشاعر، فهي تعتبرها مساعدة للفعل وحليفة للعقل، كما تعتبر أننا في طبيعتنا العميقة، نمثل الإنسان الحساس «أموسنتيانس Homo Sentiens» بنفس القدر الذي نمثل به الإنسان المعاصر الأموسابيانس. إدكار مورين بالأمس وأنطونيو دماسيو اليوم، هما ممثلا هذه الرؤية بخصوص الإنسان.

ولكن العودة للمشاعر تشكل أيضا خطرا، لأنها، وهذا ما سنتطرق إليه في هذا الكتاب، تعطي للإحساس توجها أحادي الجانب. في الواقع لماذا لا يتم الرجوع للإحساس ببساطة؟ إن طرح هذا السؤال بالتحديد هو الذي يقودنا إلى وضع إصبعنا على موضع الخلل في حياتنا العاطفية. يظهر جليا أن الإنسان المعاصر يهتم بالمشاعر التي تتميز بالانفعالية أكثر من الأحاسيس

التي لها طابع دائم، بالإضافة إلى أنه داخل ميدان المشاعر، يهمل تلك التي من الممكن أن تثري روحه ويُوثِر تلك التي تحقق له أنواعا من الإهاجات المبتذلة. إنه يفضل مشاعر الصدمة التي تدخل في خانة الصياح، على مشاعر التأمل التي تدخل في خانة التنهد. إنه يبحث عن مواقف تبعث فيه الأحاسيس القوية. هو بحاجة إلى ارتجاجات تهزه ونشاطات هستيرية تذهله وانطباعات غير عادية وقوية تبهره. حياته العاطفية مبنية على الحركية، لا على الخشوع، على الفعل، لا على التأمل.

في كتابه «أحلام يقظة متجول وحيد»، يصف جون جاك روسو المتعة التي يمنحها له الحلم الناعم على ضفة الماء الهادئ، هذا الإحساس الساكن بالوجود يبدو أنه بعيد جدا عن طباعنا. هل لازلنا قادرين على الاهتزاز لأشياء عادية وطبيعية؟ نظرة طفل، حفيف الريح بين الأشجار، غناء طير، لوحة فنية، قصيدة شعرية، ألا يجعلنا كل هذا، في غالب الأحيان، نبدي عدم الاكتراث؟ عند المقارنة مع نفسية الأشخاص الموصوفين في روايات القرن 19، يظهر جليا تخلخل إحساسنا. لكي نشعر بالحياة نحتاج إلى تجارب عنيفة، إلى «اجتياح من مهيجات جديدة» كما كان يتردد في عبارة إشهارية لإحدى المحلات في الضفة اليمنى لباريس. المخدرات، حالات الوعي المتغير، السياقة الخطرة، السرعة، المغامرة اللامحدودة، الموسيقى الصاخبة، أعمال العنف، حالات الترانس، الحفلات الصاخبة أو «ريف بارتي»، الرياضات الخطيرة هي مكونات حياتنا ذات المشاعر الجياشة.

الصحوة العاطفية التي نشهدها حاليا تضعنا في موقف متناقض، فمن جهة هناك تدفق هائل للمشاعر، ومن جهة أخرى

فقر في الأحاسيس نسبيا؛ شراهة الأحاسيس القوية يرافقها تخدير للإحساس العادي، نتأثر كثيرا، ولكننا لا نعرف أن نحس حقيقة. في إحدى الثانويات الراقية في فرنسا، أراد بعض الأساتذة خلق ناد للشعر خاص بالتلاميذ. من بين 1500 مراهق من أوساط ثقافية مرموقة داخل هاته المؤسسة، ثلاثة فقط هم الذين استجابوا للدعوة. لهذا انقرضت حلقة الشعراء. في الوقت الذي تم فيه إعادة اكتشاف وتقويم المشاعر، وفي الوقت الذي نخصها بعبادة خاصة، هل المشاعر محكوم عليها بالفساد؟

الجزء الأول

عودة المشاعر

الفصـــل الأول

كـــل مشـــاعر العـــالم

«لازال من الممكن الانبهار في عصرنا الحالي» هذه المعلومة المُطَمْئنة تكررت بلا هوادة خلال العام 2000. إننا نشعر بالارتياح لمعرفةَ أن المشاعر لا زال لها مكان في عالمنا التقني والعقلي، كما نفرح عندما نعلم أن إكراهات الربح والتنظيم لم تخنق الإحساس. بالتالي فهذا يعني، أنه لا زالت هناك مخلوقات حساسة... كان من الممكن أن نكون أكثر ثقة في حياتنا الشعورية لو لم تكن هذه الرسالة المتفائلة نابعة من حملة تسويقية لنموذج من منتوجات سيارات بوجو. لأن الأمر يتعلق، وببساطة، بشعار إشهاري. أضيفوا كلمة وثلاثة أرقام لتحصلوا على النسخة الأصلية: «بوجو206، لازال من الممكن الانبهار في عصرنا الحالي».

المشاعر: أداة إشهارية

مهما كانت التحفظات على ما توحيه لنا التصريحات التي تمليها الاعتبارات التجارية، فإنه من الخطأ تجاهلها. فمن المعلوم أن الإشهار يشكل مرآة للروح الجماعية. الدعاية الإشهارية التي رافقت طرح سيارة بوجو206 في الأسواق، تعد مؤشرا معبرا،

خصوصا وأنها ليست فريدة من نوعها. مسألة المشاعر أصبحت منذ بضعة أشهر عنصرا أساسيا في حملات التسويق. اختصاصيو الإشهار الذين يجسون نبض المجتمع، أحسن من أي شخص آخر، فهموا أن المشاعر تشجع على البيع.

احكموا بأنفسكم، شركة رهانات سباقات الخيول (PMU) أطلقت حملة دعائية عنوانها «العبوا بمشاعركم»، وهم يريدون القول أن الربح النقدي هو أقل قيمة من ارتعاش المراهن وتوتره عند الانتظار، ومن عرقه البارد وخيبات أمله وتفاجؤاته، باختصار «المخاض» النفسي الذي يصبح اللعب بدونه موسيقى عديمة اللحن. محلات «لافاييت» قدمت مؤخرا مجموعتها من الألبسة ذات الفراء على أساس أنها «موجة من المشاعر الجديدة». شركة صناعة الأدوات السمعية البصرية «بيونير» أعلنت من جهتها أن «المشاعر مضمونة». دليل رأس سنة 2000 لمجموعة محلات FNAC لبيع المنتوجات الثقافية والإلكترونية، اتخذ كشعار له «التقطوا المشاعر». وكذلك مجموعة من الشركات: TVC للمنتوجات الإلكترونية، SNCF للنقل، مجموعة فنادق «سوفيتيل»، «سيات» لصناعة السيارات؛ قامت بإطلاق إعلانات إشهارية تتمحور حول المشاعر.

شركة «كوكا كولا» قامت خلال صيف 2000 بإطلاق حملة تجارية ضخمة محورها الأحاسيس عبر العالم، باعتباره معبدا شاسعا مخصصا للحواس الخمس، التي اعتبرت بدورها كآلهة العصر. تحت عنوان «الطريق إلى جميع الأحاسيس»، يقوم الاختبار على قلب ملصقة إحدى 450 مليون زجاجة وعلبة تباع في فرنسا. إذا كانت إحدى الحواس مسجلة، يكون المحظوظ بذلك

قد ربح سفرا فريدا يجعل ألياف جسمه تهتز كاملة. كانت هناك خمسة جوائز للربح، تمثل كل منها حاسة من الحواس الخمس:

النظر: الطيران فوق الأخدود العظيم[1] بالهيليكوبتر.

اللمس: التزلج على ثلوج الصيف في الشيلي.

السمع: الإيقاعات الجهنمية للحفلات البرازيلية.

الشم: قوة الرياح التجارية على دراجة بحرية في تايتي.

الذوق: المغامرة في سريلانكا على ظهر الفيل.

قامت مدينة الملاهي ببواتييه الفرنسية المسماة «فيتيروسكوب» Futuroscope بدورها، بتعديل طريقة تواصلها حسب هذه المعطيات الجديدة. ثم إنشاؤها في الأصل كمركز علمي وثقافي، ولكنها أدارت ظهرها للمنهج التربوي الصارم، وهكذا يمكننا قراءة العبارة التالية في دليلها: «ادخلوا مدينة الملاهي «فيتيروسكوب»، في عالم من المشاعر والأحاسيس القوية».

هذه الحملات الدعائية تكشف عن سمتين أساسيتين للنفسية المعاصرة. إنها تظهر في المقام الأول أن هناك عودة إلى المشاعر هي في طريقها للتحقق. كما تبين الدراسة التي نشرت تحت إشراف برنار شاتلا، أحد أكفإ محللي المجتمع الفرنسي، أن الأشخاص «متلهفون للمشاعر»[2]. وفي المقام الثاني هي تقوم بتحذيرنا من خطر تحويل المشاعر عن مسارها الصحيح، عبر الدور نفسه الذي تلعبه في مجتمع استهلاكي. فهل نحن نقوم بالاستخدام الصحيح

1- أخدود بالغ العمق والاتساع يقع في أمريكا ويعد أحد أروع المشاهد الطبيعية في العالم. (المترجم)

2- المرجع «اللهفة إلى المشاعر»، مجلد جماعي نشرته فورسين، المنظمة الأوروبية للتسويق، دار النشر بلون، 1999.

لمشاعرنا؟ الأمر مشكوك فيه. ففي النهاية، الأشياء التي نطلب منها تحريك روحنا، والمواقف التي تهيج حياتنا العاطفية؛ هي في غالب الأحيان اصطناعية: السيارات، الأسفار المنظمة، النشاطات والأنشطة مسبقة التخطيط، الخيال، الأنترنيت. ألا يمكن القول بأننا نميل إلى استغلال المشاعر؟

هذه الحالة تكشف عن تناقض أساسي في طباعنا. ففي نفس الوقت الذي نحتفل فيه بالمشاعر، تتعرض هذه الأخيرة للإفساد. عودة المشاعر مصحوبة بتحريف غادر. الناس يضخمون أحاسيسهم ولكنهم لا يترددون في إساءة استعمالها. هذا المنحى المزدوج لإعادة استكشاف المشاعر وإفسادها، هي موضوع هذا الكتاب.

ثقافة الصورة، ثقافة المشاعر

لنكمل فحصنا للمجتمع لتحديد الحجم الكامل للظاهرة. إشارات العودة إلى المشاعر تتهاطل من جميع الاتجاهات. بقيامنا بجولة في مجال الترفيه السمعي البصري سنكتشف أنه مشبع بالكامل بالمشاعر. التسلية التي يبتغيها الناس من ثقافة الصورة، تكشف عن انحياز واضح إلى العواطف الجياشة. فيلم «الخوف الأزرق» (وهو طبعة جديدة لفيلم «أسنان البحر»)، الذي أنتج في بداية العام 2000، تم إطلاقه مرفقا بعبارة إشهارية كلماتها الواعدة هي كالتالي: «مشاعركم الأكثر عمقا ستطفو على السطح. فيلم الشاطئ للممثل ليوناردو ديكابريو، ثم تقديمه على أساس أنه «قصة شاب في رحلة بحث عن أحاسيس قوية». منذ مائة وخمسين عاما، وصف جوستاف فلوبير في روايته «التربية العاطفية» التعرجات

النفسية، الوسواس، الترددات والتسويفات التي تميز بطل الرواية فريديريك الذي يحترق حبا من أجل البطلة السيدة أرنو. إذا تصورنا نسخة حديثة لرواية التربية العاطفية فإنه سيكون لها إيقاع سريع، ستصف عدم الصبر للحصول على المتعة والبحث المسعور للشخصيات عن مواقف مهيجة تنتشي بها، «الباحث عن الأحاسيس» sensation seeker هو بطل عصرنا الحالي.

عندما يتضمن النقد مدحا لفيلم ما، تكون العبارة المستعملة: «إنه فيلم مفعم بالمشاعر». تقوم مراكز الإنتاج بصياغة السيناريوهات وكأنها تشتغل على مادة أولية في مصنع، بهدف استخلاص كل عصاراتها العاطفية. لعبة التنقل بين المشاعر تفرض نفسها. هل جعلنا المشاهد يشعر برعشة الخطر؟ إذن يجب تدفئته في الحال بشيء من الحنان، هل أضحكناه؟ إذن يجب أن نبكيه، هل ارتعد؟ إذن يمكنه أن يستمتع ومن أجل التلذذ أكثر يتم كذلك إضافة شيء من الجنس للقصص. إدخال حالة من الحزن الجنائزي، يتم إتباعه بتلطيف للأجواء ببهجة الأطفال والقصائد الحكايات التلفزية ما هي في غالب الأحيان سوى تركيب ذكي ومنتجات تمت صياغتها انطلاقا من مادة المشاعر، بفضل خاصية قطع – لصق مماثلة لتلك التي تستعمل في تركيب النصوص

16 غشت أمسية تلفزية عادية فلنستمع للعبارات ذات المعاني الواضحة والقاطعة، التي تقدم بها مجلة Télé Z[3] برامج بداية السهرة القناة الفرنسية فرانس2 تقترح فيلما فرنسيا يحكي قصة ربة أسرة حرمت من أطفالها لمدة خمس سنوات، وفي النهاية تعثر

3- مجلة فرنسية أسبوعية تنشر لائحة البرامج التلفزية منذ 1982 (المترجم).

عليهم وتكافح من أجل إعادة التواصل معهم تعليق Télé Z ((قصة ليست بالمملة، مؤداة بحرارة مع مشاعر جميلة». على قناة فرانس3، هناك فيلم أمريكي من نوع أفلام الإثارة والتشويق، شابتان يعترضهما قاتل، الدليل التلفزي يلخص ((قصة اغتيال مشوقة لا ترددوا في دخول دائرة الموت هذه» الموافقة الأبوية مرغوبة... على قناة «إم 6»، يمكننا متابعة مغامرة شابة صغيرة أصبحت أرملة، ومجبرة على إدارة مقاولة عائلية يتهددها الإفلاس، وفي هذا الفيلم كذلك الموافقة الأبوية مرغوبة. «Télé Z» تمدح هذا الفيلم الألماني بالعبارات التالية: «قصة هذه الأم الشجاعة، المليئة بالمشاعر، تشد المشاهد حتى النهاية». سواء تعلق الأمر بالمنوعات، أو العروض، أو الحوارات، أو الحكايات الخيالية، فإن الإعلام التلفزي يتزحلق فوق المشاعر. في «ليالي النجوم»[4] لصيف عام 2000 التي تخصص لمراقبة السماء، كان صحفي يدعو المشاهدين «لاسترجاع أحاسيسهم تجاه الفضاء». بصفة عامة فإن التلفزة تجلب الجمهور بإغرائه «بلحظات مميزة من المشاعر». مركزين على تسخين الباردين، وإخراج المنزوين من عزلتهم، وإقناع الممتنعين، يؤكد لنا المنشطون على أننا في طريقنا لنشهد خلال العرض المباشر، لحظة مميزة، جد مميزة من المشاعر.

الأخبار التلفزية هي الأخرى سقطت فريسة لعدوى المشاعر. هذه، على سبيل المثال، عناوين أخبار الساعة الثامنة مساء على قناة «TF1» في الثامن من ماي عام 2000. البرنامج يبدأ بوضع باقة من الزهور أمام قوس النصر، تخليدا لذكرى استسلام ألمانيا النازية

4- تظاهرة فلكية صيفية مفتوحة في وجه العموم، تنظم في فرنسا وعدد من الدول الأوربية. (المترجم)

في مثل هذا اليوم. بعثة من الشباب الفرنسيين ذوي الأصول المغاربية (البور) يشاركون في الاحتفال الرسمي. المشهد يحيي الذكرى المبهرة للانتصار، ومعاناة الحرب، ومعسكرات الإبادة. حضور البور يبعث في نفس المشاهدين إحساسا بالحنان الأخوي، فيقولون: «كم نحن سعداء لرؤية شباب الضواحي يحظون باستقبال رمزي من طرف المجتمع الوطني».

المشهد الثاني يتعلق بالفيضانات التي تسببت فيها الأمطار الطوفانية في منطقة دييب. الصور المذهلة توقظ الخوف السلفي من غضب الطبيعة. والذي يضاف إليه التعاطف مع السكان المنكوبين، الكل مصحوب بإيحاء مقلق: هل بيتي في منآى عن كوارث مماثلة؟ يأتي بعد ذلك تحقيق صحفي حول مدينة كالي التي هاجت من الفرح بعد المباراة التي جمعت ناديها المحلي لكرة القدم مع نادي «إف سي نانت». كالي هُزمت، ولكن الهزيمة كانت بطعم الفرح تصوروا كيف أن ناديا من الدرجة الثالثة دخل في منافسة على كأس فرنسا. فرحة الكاليين تدخل البهجة عند رؤيتها، والمشاهد يعجب بالمتحدي الذي وقف في وجه جالوت نانت. «مغامرة جميلة» يقول المعلق، مغامرة تهز قلوب هواة الرياضة وتبعث الأمل في نفوس أولئك الذين يجدون أنفسهم، في حياتهم اليومية، يواجهون من هم أقوى منهم. بعد خبر قصير عن الرهائن المحتجزين من قبل المتمردين في الفلبين (مشاعر الغضب والتعاطف لا زالت مشتعلة بعد خمسة عشر يوما من احتجازهم)، تستمر نشرة الأخبار بتحقيق صحفي من الواقع ، حول المهاجرين السريين الذين يأتون من المغرب على متن القوارب. الكاميرا باغتت مشهدا نتابعه بخليط من التذمر من السلطات العاجزة عن

القضاء على شبكات الهجرة غير الشرعية، ومشاعر الغضب أمام هذا التعدي على التراب الوطني. نهاية النشرة. مشاعر أقوى من هاته، قد تكون قاتلة.

الرياضة في خدمة المشاعر

لا يجب أن نتعجل باتهام الإشهار والإعلام بخلق هذا التوتر في حياتنا العاطفية، والقول بأننا لا نريد سوى البقاء في هدوء. هذا غير صحيح، كل واحد منا يساهم في زيادة توتر المشاعر، وذلك بخلق فرص الاهتزاز بطريقة ممنهجة. لا شيء معبر في هذا الصدد أكثر من الممارسات الرياضية التي تحظى بدعم الجمهور. ماذا نحب أكثر في أيامنا الحالية؟ خصوصا، رياضات المغامرة أو الانزلاق. البعض يسير بأقصى سرعة على الطريق بفضل ألواح التزلج والدراجات الصغيرة، آخرون يجدون المتعة في التزحلق على الأمواج، أو التقاط قوة الرياح بأشرعة قواربهم. نتشبث بمثبتات الأشرعة المسرعة أكثر فأكثر، ننزل ببهلوانية في الأنهار بالقوارب، نترك أنفسنا محمولين في الهواء بفضل مظلات الطيران والطائرات الشراعية والمناطيد. أما دراجات «ف ت ت» (VTT) فتنزل بأقصى سرعة في المنحدرات الجبلية. من جهة أخرى فإن أنشطة المغامرة هاته لها قاسم مشترك. فكل واحدة منها تحقق تعطيلا للمجهود العضلي وتفعيلا للتحكم الحواسي، سواء تعلق الأمر بالانزلاق في البحر، على الأرض، أو في الهواء، الهدف ليس هو إنفاق الطاقة بقدر ما هو معالجة مجموعة من المعلومات الآتية من المحيط الخارجي في توقيت حقيقي، ومحاولة الحفاظ على التوازن، والشعور الكامل بالجسم، والسيطرة على نظام

تقني معقد. رياضات التزحلق لا تمجد القوة والتحمل، ولكن القدرة التي يمكن أن نصفها بالسبرانية[5]، أي فن القيادة. من هذا المنطلق يصبح الجسم المعفى من ضرورة بذل الجهد حرا ليستمتع بحواسه. فيظل مركزا على ما هو محسوس، ويصبح بذلك «مصنعا للأحاسيس»، وهذه العبارة هي لعالم الاجتماع جورج فيكاريلو[6]، وأكثر من هذا، مصنعا للمشاعر. هذا لأننا نبحث في رياضات الانزلاق عن اهتزازات المشاعر أكثر مما هو محسوس. بتقليصنا للمجهود العضلي لفائدة المعالجة المعلوماتية، نطلق العنان للنشوة والدوران والفرح والمتعة. التزحلق بشتى أنواعه يشكل وسيلة لتوليد مشاعر قوية وغير مسبوقة. نوع من الخوف الشبقي والرهبة تتملك الإنسان، المخلوق الضعيف، عندما تحمله الأمواج القوية، ترميه الجاذبية في اتجاه الهاوية، ترفعه التيارات نحو الأعالي، تقذفه الأعاصير. المتزحلق يشعر وهو محمول بعناصر لا تضاهيها أبدا قواه الضعيفة، بالخضوع لقوى غير عادية. هذه الأحاسيس المتضخمة تمد روحه بتذبذبات لذيذة، وتولد لديه شعورا خفاقا وشبه سحري بالاندماج مع الكون.

«يا للإحساس ! الإحساس الحياة الناعمة للروح» كان يصيح سان برو في رواية هلوويز الجديدة[7]، وهي رواية رسائلية من مائة وثلاثة وستين رسالة، قام فيها جون جاك روسو بتمجيد «الأحاسيس الناعمة»، وهي التي أعطت إشارة الانطلاق لما «قبل

5- السبرانية Cybernétique: علم حديث ظهر في أربعينيات القرن 20، ويعرف على أنه «علم القيادة أو التحكم في الأحياء والآلات». (المترجم)

6- «الجسم في امتحان صعب»، جريدة لوفيكارو، غشت 2000.

7- «جولي أو هلوويز الجديدة»، الجزء الخامس. الرسالة السادسة، دور النشر كلاسيك كارنيي ص585.

الرومانسية». ولو صف الإحساس المعاصر، يمكن إعادة صياغة هذا التغني بالحياة العاطفية باستبدال الكلمات: «يا للمشاعر! المشاعر الحياة الصاخبة للروح» يصيح الإنسان المعاصر. لأن الأمر لم يعد يتعلق بالأحاسيس الناعمة في المجتمع المعاصر. أصبح التردد العاطفي عاليا جدا بالنسبة للماضي، وأصبحنا حاليا نقدس عنفوان المشاعر.

مجتمع مبالغ في المشاعر

مؤرخو المستقبل الذين سيشرعون في وصف حقبتنا التاريخية، سيخلصون إلى أنها كانت تتميز بطغيان المشاعر. لا يوجد مجال في الحياة الاجتماعية المعاصرة لا يخضع لهذه العدوى. الميولات الاجتماعية الحالية يمكن تفسيرها على أنها محاولات لتحريك الحياة العاطفية.

وهكذا أقامت حركة العصر الجديد المعرفة على أساس المشاعر، بالدعوة إلى اكتشاف الجسد وسبر أغوار المحسوس والانبهار المسحور أمام لاتناهي الكون. الحركة البيئية، وهي قريبة من حركة العصر الجديد، تتغذى من جهتها بالمشاعر. الخوف من رؤية الأنظمة البيئية تتدمر، الخوف من المستقبل، الرهبة من الكوارث الأرضية، تمثل الدوافع الحقيقية وراء مواقف أنصار البيئة. الحركة البيئية يرافقها كذلك استيقاظ للشعور بالطبيعة، وفي أشكالها المتطرفة (الحركة البيئية العميقة)، هي تدعو إلى عبادة الطبيعة في إطار الطقوس الواحدية[8].

8- الواحدية (Panthéisme): هي الاعتقاد بأن الله (أو الخالق) والكون (أو الطبيعة)، حقيقة واحدة. (المترجم)

الممارسات الدينية الجديدة التي نشهدها عند الشباب في إطار الحركات الكاريزمية أو في الطوائف، تساهم هي كذلك في العودة إلى المشاعر. بقطعها مع القيم المحافظة والتعاليم المسيحية والكنائس، أفسحت المجال من جديد لإحساس «النومينو» Numineux، الذي تم تعريفه في بداية القرن العشرين من طرف الأنثروبولوجي رودلف أوتو، على أنه خليط من الذعر والانجذاب لما هو خارق للعادة[9]. أشكال الخشوع التي تتزايد في أيامنا الحالية تبالغ في تفاعل الجسد مع الصلاة، الترانس، الاحتفال الجماعي، تظاهرات الفرح، «حالات الوعي غير العادية»، التجربة الغموضية والانتشاء. كذلك الشغف بكل ما هو مخالف للعادة وباللامعقول ينبع من الرغبة في القيام بتجارب عاطفية استثنائية. بتعطيلهم للعقلانية الباردة ينجذب معاصرونا إلى الغموضية، يريدون أن يتذوقوا الخوف العجيب الذي يستأثر بالذين يجرؤون على المغامرة في مجال السحر، العلوم الخفية وعلوم الغيب.

الميل إلى إحياء الذكريات وتقديس الماضي يدخل في إطار هذه الحركة للعودة إلى المشاعر. من بين الاثني عشر مليون زائر الذين يستغلون كل سنة التسهيلات المقدمة في الأيام المخصصة للتراث لزيارة القلاع، المصليات العتيقة، الأديرة، الفنادق الفريدة، الأعمدة الخشبية المزينة والصالونات الراقية المليئة بذكريات النبلاء؛ الكثير منهم يلبي حاجته إلى الحماس وإلى الرغبة في غمر الروح في حمام من الحنين إلى الماضي. الحمولة الشعورية هي كبيرة كذلك داخل الحركات الانتمائية والعرقية والجهوية. عودة المجتمع إلى

9- المقدس: مجموعة المكتبة الصغيرة لدار النشر بايو 1968.

القبلية وإلى المشاعر هما بكل تأكيد ظاهرتان مترابطتان. من خلال الروح الجمعوية التي تتزايد وتكاثر الطوائف والعشائر بمختلف الأنواع، يظهر أن الأشخاص يريدون، أكثر فأكثر، الاستمتاع بانتمائهم الجمعوي على نمط حاد وحار. تدفعهم عاطفة لا تقاوم إلى الانخراط في مجموعات ذات كثافة عاطفية عالية.

في مجال العمل، أصبحت المشاعر أيضا تشكل محورا رئيسيا. من الملفت للانتباه أن تضع إدارات الموارد البشرية دورات تدريبية «للتنمية الشخصية والمهنية»، لتمكين الأطر من تحريك إمكانياتها العاطفية والتعبير عن أحاسيسها، وتسيير واستغلال مشاعرها.

السياسة محكومة بالمشاعر

السياسة تخضع أيضا لعدوى المشاعر. الاعتراض المندد، الميل إلى الفضح، ردات الفعل المتعاطفة تلعب دورا متزايدا في الحوارات العمومية. الانفعالات العاطفية تحل في بعض الأحيان محل المعايرة الدقيقة والتحليل العلمي ونقاش الآراء. بتناولنا للأحداث من خلال المرآة المكبرة للمشاعر، ألا نوشك على التغاضي عن حل المشاكل، أو على الانفعال بطريقة مبالغ فيها؟

نلاحظ أيضا أنه من بين المبادئ التي تحكم السياسة المعاصرة، هناك اثنان مرتبطان مباشرة وبطريقة خفية بالمشاعر. نلمح بداية إلى واجب الذاكرة، والذي هو مفروض من قبل الوعي المعنوي ولكنه ينتمي في نفس الوقت كذلك إلى مجال العاطفة، حيث أنه يعبر عن رفض الحياد العاطفي. الالتزام بواجب الذاكرة، هو تصريح بالعزم على المحافظة الكاملة على قدرة التأثر بالمعاناة التي طالت الأجيال السابقة، على الرغم من مضي الوقت. يتعلق الأمر

بضرورة معنوية وعاطفية، كما يؤكد على ذلك الفيلسوف فلامير جانكليفيتش. من جهته يتضمن مبدأ الحذر، الذي يعتبر عنصرا أساسيا في القرار السياسي المعاصر، شكلا من أشكال الخوف لا نقاش فيه. الفيلسوف هانس جونس الذي صاغ هذا المبدأ الملازم للفعل الجماعي في كتابه «مبدأ المسؤولية»، سماه بطريقة معبرة، «منهجية الخوف».

انغماس الحياة العامة في المشاعر تنعكس على صورة الرجل السياسي المثالي. في أيامنا الحالية، يجب على رؤساء الدول والحكومات الاستجابة بصورة ملائمة للحاجة الشعورية للرأي العام. لا يمكنهم التخلي عن الظهور بمظهر إنساني، متعاطف ومتضامن. في الصحراء الإيديولوجية التي يجتازها المجتمع المعاصر، حضور العاطفة هذا في السياسة يؤدي دور مقاصة واضح.

هكذا، فإنه في حادثة غرق الغواصة كورسك في غشت سنة 2000، احتج الرأي العام الروسي على اللامبالاة الظاهرة لفلادمير بوتن في بداية الكارثة. في الأيام الأولى للحادثة، اعتبر الرئيس الروسي أن الأمر لا يستدعي قطع إجازته، كما أنه لم يعبر للرأي العام عن أية مشاعر. هذا الموقف اعتبر إشارة لانعدام الإحساس وأثر بشكل سلبي على شعبيته.

نتذكر كذلك، في الحوار التلفزي الذي جمع فرانسوا ميتران بفاليري جيسكار ديستان سنة 1981، كيف سعى هذا الأخير لتصحيح صورة «المجتهد الأول للقسم» المعروفة عنه، والتعويض عن افتقاده للشاعرية، وذلك بالتأكيد على أنه يمتلك كخصمه «قلبا». في غياب مشاريع كبرى بناءة، ترغب الجماهير

في أن يشاركها مسؤولوها أفراحها وأحزانها. المفارقة هي أن قوة الزعيم المعاصر تكمن في قدرته على إظهار هشاشة وأحاسيس كلها إنسانية. الحكام عليهم أن يبرهنوا على قدراتهم الشعورية. ولهذا نراهم أكثر فأكثر في ملاعب رولاند كاروس أو في المركب الرياضي «سْتاد دو فرانس» في مباريات النهاية. كأي متفرج عادي، يرتجفون عندما تتقدم إيطاليا في النتيجة في آخر لحظات الأورو 2000. كمثل الجمهور، ينفجرون من الفرح بعد الفوز.

خلال حادثة الكونكورد في يوليوز 2000، لم يكتف الرئيس جاك شيراك بتقديم عبارات العزاء لعائلات الضحايا فتلك العبارات، المأخوذة من قاموس الآداب، تلائم البيانات الرسمية العامة. الرئيس الفرنسي صرح بأنه «يحس بمشاعر قوية». الأمر يتعلق بالتأثر واختيار الكلمات المناسبة للتعبير عن ذلك. صورة الرجال الاجتماعيين يتم تشكيلها على أساس مدى قدرتهم على الاهتزاز. هذا الطابع العاطفي الحاضر في قلب الدولة هو نتاج لما شخصه أخصائيو السياسة، منذ مطلع الستينات، تحت اسم «شخصنة السلطة».

الفصل الثاني

المشاعر، اختيار في غياب ما هو أفضل

يجب المرور الآن من الملاحظة إلى التفسير. ما هي أسباب هذا الرجوع إلى المشاعر؟

السبب الأول يكمن في عملية التعويض، فالمشاعر تشغل الفراغ الذي سببه ما كان يسميه إرنست بلوش «قاعدة الأمل». في إطار انهيار الإيديولوجيات وضبابية الرؤى المستقبلية، اللجوء للحياة العاطفية يعد علاجا للارتباك. لم يعد هناك مشروع ضخم بإمكانه أن يحركنا. طاقاتنا محرومة من متنفس لها في الوسط السياسي. وبما أنه يتعذر عليها الانتشار في الخارج، فإنها تتركز في المحيط الداخلي، تتخمر، ونتيجة هذا التخمر هي المشاعر.

جيل سنوات الستينات كان يشعر بالملل، كما لاحظ بيير فيانسن بونتي في مقال مشهور[1]، أعلن فيه بطريقة تنجيمية عن الإعصار الذي كان في طريقه لضرب فرنسا في ماي[2] 68. كان يشعر

1- «فرنسا تشعر بالملل» جريدة لوموند، 1968.

2- أحداث ماي 1968 في فرنسا هي عبارة عن اضطرابات مدنية وإضرابات عامة اجتاحت فرنسا من ماي إلى يونيو سنة 1968، وكان لها مطالب ثقافية واجتماعية وسياسية (المترجم).

بالملل ولكنه كان مليئا بالمشاريع ، كان يؤمن بالإيديولوجيات، كان لديه إيمان بالحركة، ولهذا قام بأحداث ماي 68 التي بددت سأمه. نحن كذلك على شاكلة أسلافنا، يترصدنا الملل، ولكن ليس لنا هذا المتنفس. خلافا للمحتجين سنة 1968، لا نتطلع لمخرج من ناحية السياسة. لا توجد آفاق للفعل لخدمة فكرة مثالية أو صراع للطبقات. التخطيط الدماغي مسطح، الأمل في تغيير جذري للحياة منطفئ في القلوب. وهكذا، فبسبب اليأس في القيام بعمل سياسي ضخم، يكتفي الكثير من الناس بالمشاركة في الحياة العامة على الطريقة العاطفية للتنديد السياسي المحض والعادي. المشاعر هي وسيلتهم في النضال.

المشاعر، بديلة للفعل

التقوقع داخل الحياة العاطفية يعد نتيجة لاجتياز العالم لمرحلة من التغيير العميق، الذي يظهر أنه خارج عن سيطرة الإنسان. عملية لا تقاوم مرتبطة بالتقنيات الحديثة والعولمة تجر الكوكب نحو مستقبل لا يتحكم فيه أحد. نحن نعلم جليا أننا لسنا فاعلين في هذا التطور، ولكن مجرد متفرجين عاجزين. لهذا، ولتعذر إمكانية الفعل، فإننا ننفعل عاطفيا. فيفكر الشخص كالتالي: «بما أن العالم لا يمنحني الفرصة للتأثير فيه، فإنه لا يبقى لي إلا أن أمارس قدراتي على نفسي. هذه الأخيرة ستتركني على الأقل أنفعل بفعل الاهتزازات التي سأحدثها». التغيير الذي يستحيل فرضه خارجيا، يعاد توجيهه إلى الداخل. الحركة يتم توجيهها إلى الذات. هذا التوجيه الداخلي للحركة هو بالضبط ما يولد المشاعر، كما يدل على ذلك التأصيل لكلمة «é-motion» التي تعني «إطلاق الحركة».

الهدوء يعم جبهة صراع الطبقات، والعالم يرفض أن يخضع لسيطرتنا، لكن ولحسن الحظ، تبقى ساحة معركة الأحاسيس القوية مباحة لنا لتفريغ حمولتنا الزائدة من الطاقة. كالمدمن الذي يهرب من الواقع في رحلة تخديرية، نحن كذلك نخدر أنفسنا بمغامرات شعورية، أو نتعاطى رياضات خطيرة. هناك العديد من الإشارات تدل على أن هواة هذا النوع من الرياضات يحققون الرغبة في تحريك شجاعتهم لتحقيق شيء من البطولة. فإذا استثنينا حروب الهند الصينية والجزائر، فإن الفرنسيين ظلوا في سلام لأكثر من نصف قرن. من المؤكد أنهم سئموا هذه الهدنة الطويلة. لربما بطريقة لا شعورية، هم يندمون على الأوقات المضطربة التي يغامر المرء فيها بحياته للدفاع ضد العدو؟ لهذا، فهم يبتكرون... القفز في الهواء، على الرأس، في طرف حبل مطاطي من خمسة عشر مترا، هذه هي طريقتهم لخوض الحرب.

الأجيال الرومانسية

في تاريخ فرنسا مرت حقبتان، كان فيهما الجو السائد شبيها بالذي نعيشه حاليا. بعد سقوط نابليون سنة 1815، انتاب عدد من الشباب شعور بالإحباط. ففي ظل الإمبراطورية، تمت تلبية حاجتهم للحركة، ولكن عودة السلام خذلهم. كانوا يئنون من الاكتئاب في قارة أوروبية وضعت تحت وصاية مؤتمر فيينا. في كتابه «شهادة طفل من القرن»، وصف ألفريد دي موسيه الحالة المعنوية لهذا الجيل الذي كان يجتر يأسه، والمقسم بين الحنين إلى جيش عظيم والملل من إعادة البناء:

«شعور غامض بالضيق بدأ يتخمر في كل القلوب الشابة، لكونهم محكوم عليهم بالراحة من طرف حكام العالم، خاضعين للمتحذلقين بشتى أنواعهم، للخمول والملل، كان الشباب يرى أنه سلب من الأمواج العاتية التي أعد لها سواعده[3]».

بالنسبة لكثير من فرنسي تلك الحقبة، شكل الإحساس بالنسبة لهم متنفسا. الجمود الذي تم فرضه عليهم أدى إلى تهييج أليافهم الرومانسية. جيل ما بعد نابليون هرب إلى حياة الروح، التي هي مختلفة عن الروح الحالية. فقد كانت أقل هيجانا، أكثر تأملا. كانت تتغذى بخيال رفيع ولبق، وليس كما هو الحال في أيامنا هذه، بأحاسيس قوية. المشاعر كانت متدبرة، عميقة وميتافيزيقية. ولكن لا يهم، فعندما نحذف هذه الاختلافات، فإن التشابه مع عصرنا ملفت للانتباه. كمثل أيامنا الحالية، كانت حياة الروح تعطي الأشخاص إمكانية الهرب. المشاعر كانت بمثابة «الإفلات العجيب» الذي يمكن من نسيان خذلان العالم.

في السنوات التي تلت هزيمة 1870، عاد نفس السيناريو إلى الواجهة، كانت بروسيا قد أقدمت على إلحاق هزيمة نكراء بفرنسا، وقامت بضم الألزاس وجزء من اللورين. الفرنسيون حلموا بمحو هذا الإذلال، ولكن ولانعدام توازن القوى، كانت حرب جديدة ستؤدي إلى كارثة جديدة. وهكذا حل جو من الاستسلام المر بالبلاد. الروح العامة كان ينخرها شعور بالنقص وغضب عاجز. الثأر كان حاضرا في كل الرؤوس، الجميع «كان يفكر بذلك، ولكن لا أحد كان يتحدث عنه»، كانت هذه هي

3- شهادة طفل من القرن. فلاماريون 1935، ص 11

القاعدة. نفس الأسباب التي أدت إلى نفس النتائج، فحالة العجز باته دفعت إلى الهروب إلى الحياة الباطنية. وكمثل ما وقع بعد هزيمة واترلو، تم الهروب إلى الإحساس. وهكذا كانت الحياة عبارة عن «عالم حيث لا شيء عظيم يمكن فعله أو قوله، حيث أقصى ما يمكن القيام به هو الشعور والتفكير بعمق بأشياء عظيمة[4]».

إذا سمينا «الرومانسية» الموقف الذي يتمثل في الهروب من الحقيقة بفضل إحدى إمكانيات الحس الداخلي، كالخيال والشغف وحلم اليقظة والتأمل الفني، إلخ، يكون جيل ما بعد سنة 1870 كسالفه في إعادة البناء، رومنسيا. وعصرنا كذلك الذي يبحث عن سبل الهروب إلى الإحساس، ويحاول الإفلات من عالم متصلب عن طريق الاهتزازات الداخلية، هو أيضا رومنسي. نحن نغرس رومانسية المشاعر.

المشاعر وعبادة النفس

ولكن يجب الذهاب ما وراء التعليل الذي يختزل المشاعر في دور تعويضي، المشاعر لا تمثل فقط وسيلة للتدارك، وعلاجا لغياب الشجاعة، وبديلا عن الفعل الذي أصبح مستحيلا. هي ليست فقط وسيلة للهروب من الاكتئاب، بمعنى الهروب من النفس. في الواقع فإن الانسان المعاصر يرغب فيها أساسا لكونه يعتبرها كأداة لتحقيق ذاته. لقد أصبحت مركز اهتماماته، موضوع بحث في كل لحظة، لكونها تحقق نموذج الحياة الكاملة الذي يتجسد في عبادة النفس. تستمد جاذبيتها من كونها تمثل مفتاح الانفتاح الشخصي.

4 - المرجع . حياة فيكتور ألفييري المكتوبة بقلم صاحبها، 1877، ص 109، المذكور في كتاب موريس باريس، «روايات وأسفار»، دور النشر روبير لافن، مجموعة «بو كن».

وبفتحها لباب الدخول في حياة غنية، أصلية وكاملة الإنسانية، فإنها تشارك في هاجس الذات. الرجوع إلى المشاعر هو بالأساس تعبير عن النزعة الفردية المعاصرة.

الفصل الثالث

«الأموسنتيانس[1]» هو النموذج المثالي لعصرنا

كل فترة من التاريخ لها نوع إنساني مثالي. مجتمع العصور الوسطى عرف الفارس النبيل الشهم. عصر النهضة خلق رجل البلاط، وهو خليط متجانس من اللباقة والأناقة والفضيلة والإخلاص للأمير. القرن السابع عشر تميز بالرجل النزيه، القرن الثامن عشر الفيلسوف المتنور والتاسع عشر المقاول الجريء «البرجوازي الفاتح». ما هو في عصرنا الحالي ذو النزعة الفردية المتطرفة نوع الإنسان المثالي؟ إنه الكائن الذي يقدس ثقافة المشاعر، الرجل العاطفي، الإنسان الحساس «الأموسنتيانس».

نمط العيش داخل المشاعر ومن خلالها

1) أول ميزة للإنسان الشعوري هي أنه لا يخاف مواجهة مشاعره. لا يشعر بالتهديد أو الاحتقار أو العار عندما تجتاحه. لا يظهر الحاجة لكبتها. يعبر عنها و «يديرها» كما يقول علماء التطور الشخصي. وفي هذه الحالة، تخالف عبادة المشاعر مبادئ علم

1- «Homo Sentiens» الأموسنتيانس: اسم أخذه الكاتب عن «Homo Sapiens» الأموسابيانس، وهو اسم النوع البشري الحالي. (المترجم)

النفس الأكاديمي الذي كان يعتبر حتى وقت قريب، المشاعر عيبا في السلوك وإضاعة للجهد وسببا في انعدام التكيف. لا، يرد الإنسان المعاصر، المشاعر ليست ضعفا ولكن ورقة رابحة يجب استغلالها لكونها تدعم الانفتاح الشخصي. إنها المساعد الأكثر فاعلية لهاجس الذات.

الإنسان الشعوري المثالي يحرص على الالتزام بالذاتية. فهو يعتبر أن الإنسان يمثل ذاته فقط حين يحس ويعبر عن المشاعر التي تهز روحه. القدرة على الارتعاش هي أغلى سمة تطبع إنسانيتنا. يقول الأديب الألماني يوهان فون غوته: «سعيد من كان يعرف كيف يرتعش»، وهكذا فلحظة الشعور بالاهتزاز الداخلي، هي بداية الوصول إلى نواة الكيان وتحقيق الانفراد المميز للشخصية والتأكيد على اختلافها. «الكينونة تعني الإحساس» يقول أرثر جانوف[2]، الطبيب والمحلل النفساني، مبدع «الصرخة الأولية»، وهي تقنية لعلاج العصابات تقوم على الإفراغ العاطفي.

هذا الحرص على الذاتية يسير في طريق فلسفة لاعقلانية تتماشى كليا مع روح عصرنا. عبادة المشاعر تقلب الترتيب الطبيعي لقدرات الروح وتزيح العقلانية من القاعدة، فبالنسبة لها الوجود الحقيقي للإنسان ليس هو الذي يرفعنا إلى العقلانية، ولكن هو الذي يردنا إلى الحسية وبدائية الحواس. اغطسوا فيما دون العقلانية! ستكون حياتكم مستغلة أكثر عندما تسعون إلى الإحساس أكثر من التفكير. يوجه فريتزبيرل مؤسس علاج الحالة «Gestalt thérapie»، وهي نوع من العلاج القصير القائم على

2- «الصرخة الأولية» شون فلماريون، 1978، ص 277.

تحرير المشاعر، النصيحة التالية للمرضى: «اخرجوا من رؤوسكم وانغمسوا إلى حواسكم[3]». هذه العبارة قام كارل فريد فون دوركهايم بإعادة صياغتها. دوركهايم وهو كاثوليكي ألماني توفي سنة 1988، تلقن الزن[4] عند إقامته في اليابان لمدة عشر سنوات، ومثل صورة «حكيم» العالم الغربي. لقد وضع طريقة لتحقيق الذات «علاج الذات Leibthérapie»، عرفت نجاحا كبيرا. في كتاب «مركز الكائن» وهو من المراجع في تطوير الشخصية، يقول باختصار: «الإحساس دائما الإحساس لا التفكير»[5].

تقديس المشاعر يعيد تبني الفكرة المنتشرة في مبادئ علم النفس المعاصر، والتي تقول أنه من المفيد تقليص تأثير الدماغ الأيسر، المحلل المنطقي، لصالح الدماغ الأيمن، المخمن، العاطفي، الفنان، «حرروا دماغكم الأيمن» واحد من أكثر شعاراتها ترددا. وبهذا فإنها تروج لنوع من التعارض مع الفلسفة الغربية. فالغرب خلافا للشرق متهم بإهمال الدماغ الأيمن لفائدة الدماغ اليسر.

تقديس المشاعر يتميز أيضا بالمكانة التي يحظى بها الجسد. أصلا فإن الاهتمام المخصص للجسد هو الذي يفسر جزئيا الحماس الذي يرافق قيام الإنسان بإعادة اكتشاف المشاعر. إعادة تأهيل الجسم تؤدي في نفس الحركة إلى إعادة تأهيل المشاعر. عبادة المشاعر وعبادة الجسد هما وجهان لثورة واحدة في العقليات.

---

3. مذكور من طرف سيرج جينجر، علاج الحالة، علاج بالتماس، الناس والمجموعات، 1987، ص 289.

4. Zen الزن: مذهب بوذي قائم على التأمل. (المترجم)

5. «مركز الكائن»، دور النشر ألبين ميشيل، سلسلة «روحانيات حية» 1992، ص 30.

القيمة المضافة للمشاعر تتجلى في الواقع في مشاركتها في نفس الوقت في حياة الروح والجسد. هي العلامة على ما كنا نسميه في الماضي «اتحاد الروح والجسد». فهي تقع في الحد الفاصل ما بين مكوني الطبيعة الإنسانية. عندما ينتابنا شعور ما، فإننا نقوم باستحضار جسدنا عبر عدد من أشكال التغيرات الفيزيولوجية، العصبية النباتية والغدية. تغيرات التنفس، تغيرات إيقاع دقات القلب، العرق البارد، الارتعاش، الاهتزاز، الكرة في الحلق، كلها تشهد على أن المشاعر هي إذن حياة قريبة منَ الجسد. فسح المجال أمام المشاعر هو تمكين للجسد من التعبير. عبادة المشاعر تجلب الإنسان المعاصر لكونها تطفي الشرعية على نمط حياة عضوية وبدائية. بتسليم أنفسنا للمشاعر، نتعلم من جديد «كيفية التواجد» جسديا، نحس بتماس لذيذ مع الفيزيولوجيا داخل القالب الثقافي، ونساهم في الثورة الثقافية عبر الطبيعة.

ما وراء العقلانية

الإنسان الشعوري الذي تعتبره حقبتنا مثاليا، يحاول أن يقيم رابطة إحساس مع العالم. فهو متضامن مع فلسفة المعرفة التي تولي للإحساس دورا أساسيا. بالنسبة له، فإن العالم لا يكشف أسراره من خلال الوظائف الإدراكية، ولكن عبر المشاعر. يمكننا مقارنة الإنسان الشعوري مع بوفار وبيكوشي[6]، مع وجود فارق أنه في حالته، لا يتعلق الأمر بمعرفة كل شيء ولكن بإحساس كل

6– بوفار وبيكوشي هما بطلا رواية «بوفار وبيكوشي» للكاتب الفرنسي جوستاف فلوبير، تحكي كيف أرادا تحصيل كل العلوم ولكنهما فشلا. (المترجم)

شيء، أو بالأحرى بمعرفة كل شيء عن طريق «الإحساس» والذي هو وسيلته المفضلة للمعرفة. بالنسبة له، فإن المعرفة تتمثل في تمكين العالم من إحداث رنين في الإحساس، اهتزاز في قرارة النفس. في هذا الصدد، يسير تقديس المشاعر في الطريق المستقيمة المؤدية لحركة العهد الجديد، التي هي على عكس النهج العلمي، ترفض إزاحة الذاتية والتفريق بين موضوع المعرفة والشخص الذي يعرف. مفتاح الإدراك المعرفي يتجلى في جعل الموضوع والشخص يتوهجان داخل الشعور الذي بفضله سيتداخلان ويحققان اندماجهما.

هذه الفلسفة المخالفة للوضعية[7] تظهر جليا في مسابقة كوكا كولا التي تم شرحها أعلاه. الشركة تقترح على الفائزين اكتشاف العالم بطريقة شعورية وليس بطريقة إدراكية. لم تكن تهدي لهم أسفارا موجهة للدراسة، ولإغناء معلوماتهم وتحصيل العلم، والتفكير في تنوع العالم؛ ولكن مسارات من المتعة واكتشافات جغرافية مذهلة وسباقات عبر الكوكب من أجل التعبئة الكاملة للمشاعر. هذا الترويج للإحساس، هذه المعرفة المهتزة والتشاركية تذكر بما تبناه الرومنسيون تحت اسم «الأينفولونك»[8].

في النهاية، فإن طقوس المشاعر لا تتخذ العالم كموضوع للمعرفة، ولكن كوسيلة للمتعة. بالنسبة للإنسان الشعوري فإن العالم لا يكون له طعم إلا إذا أثر فيه حسيا، إلا إذا جعله يهتز. في فيلم «أجنحة العشق» للمخرج الألماني فيم فيندرز، صور الفيلم

---

7 - الوضعية هي فلسفة مادية لا تؤمن إلا بما هو رياضي ومنطقي. (المترجم)

8- بالألمانية: «Einfuhlung». (المترجم)

بالأبيض والأسود حتى اللحظة التي أحس فيها أحد ملائكة رسل السماء، وهو دانييل داميل، بعشق البهلوانية ماريون. صدمة الحب هاته غيرت كل شيء. من اللحظة التي ارتج فيها قلب الملاك بسبب هذا البلاء اللذيذ، تلون الفيلم. المخرج لم يكن بإمكانه أن يأتي باقتراح أحسن من كون خفقان الإحساس وارتجاف المشاعر هو ما يعطي الألوان للعالم.

بالنسبة «للأموسنتيانس»، تجربة الأشياء والكائنات لا تكون ممتعة إلا إذا روتها المشاعر. العالم لا تكمن أهميته في كونه أداة للبحث العلمي أو مادة يجب السيطرة عليها بالتقنيات، ولكن في قدرته على خلق صدى من الإحساس. هو ليس بمنجم من الثروات المادية التي يجب استغلالها، إنما هو منبع من المشاعر التي يجب عيشها. أصغر مكوناته ليست هي ذرات المادة، ولكن دقائق من المشاعر. كما تعطي الألوان الرئيسية، الأصفر والأحمر والأزرق، جاذبية للإحساسات البصرية بالتحامها فوق لوحة الرسام؛ كذلك العزف على ملامس المشاعر، كالمفاجأة والغضب والخوف والفرح والإعجاب والنشوة؛ يصدر أجمل ما في العالم من ألحان. ظاهرة أخرى مثيرة للانتباه، تتمثل في ظهور وانتشار العديد من مجلات الذوق في أيامنا هذه. أحد أكثر الأفلام شعبية في عام 2000 يحمل عنوان «ذوق الآخرين»، أليس الذوق هو في العمق، ممر للوصول إلى المشاعر؟ العودة للذوق هي طريقة للقول بأنه، من دون مشاعرنا، سيصبح العالم مرة أخرى بدون طعم.

من أجل الإحاطة الدقيقة بصورة الأموسنتيانس، من الملائم التساؤل حول المكانة التي يوليها هذا الأخير للتأمل الذاتي، بمعنى لنظرته الذاتية. هل ينتابه الشعور بالحاجة للدخول في نفسه؟ هل بإمكانه أن يضع مرآة لتأمل ما يجري في قرارة نفسه؟ بإيجاز، ماذا حل بالوعي الذاتي في عصر المشاعر؟ سوف نرى أنه رغم أن الإنسان الشعوري لا يقصيه، ولكنه يتصوره بطريقة مختلفة عن التي يتناولها ديكارت في أطروحته الفلسفية «تأملات ميتافيزيقية».

ديكارت يتناول التأمل الذاتي من وجهة نظر إدراكية. الازدواجية التفكيرية التي مارسها ديكارت في أطروحته، كانت عبارة عن فعل عقلاني يمكن الشخص من التفكير في فكره الخاص. ما كان ديكارت يجد في داخله كان قبل كل شيء واقع أنه كان يفكر، وبسبر أغوار نفسه، كان يكتشف «الروح المفكرة» أو «ريس كوجيتانس» res cogitans. محتوى الوعي بالذات هذا، هو ما تعبر عنه كلمة كوجيطو. بالإضافة إلى أن الكوجيطو كان عليه القيام بوظيفة محددة في خط التأملات، فإنه كان متموضعا كأول حلقة من سلسلة من التعقلات الموجهة للوصول إلى يقين فلسفي، فكان هو المرحلة الأولى لاكتشاف الحقيقة. الكوجيطو الديكارتي، بمحتواه وكذا بمرماه، كان عقلانيا. من منظور عبادة المشاعر، فإن ممارسة الوعي بالذات يأخذ معنى آخر. فعندما يقوم الإنسان الشعوري بالرجوع إلى نفسه، فإنه لا يسعى إلى تحليل مضمون تفكيره، ولكن إيجاد آثار انفعالاته وأحاسيسه ومشاعره. التجربة التفكيرية التي يخوض فيها هي ذات طابع إحساسي وليس إدراكي، فهو لا يقول «أنا أعرف أنني أفكر» ولكن «أعرف أنني

أحس»، بل وأكثر من ذلك «أنا أحس أنني أحس». يريد أن يكون تلميذا لروسو وليس لديكارت.

كما في الجولة الخامسة من كتابه «أحلام يقظة متجول وحيد» حيث يسلم روسو نفسه لإحساس لذيذ بالوجود، فإن الإنسان الشعوري يبتغي الاستمتاع بلذة الوجود. أحد المؤشرات الأكثر وضوحا في هذا الصدد يتجلى في أهمية «الشعور» في تمارين «الصحة الجيدة» وتطوير الشخصية. المدربون والمعالجون يشددون على ضرورة إعادة الارتباط بالأنا عن طريق الشعور، من أجل اكتشاف انتمائه العميق. ما كان روسو على الأرجح سينكر هذه المنهجية. الإنسان المعاصر لا يقول «أنا أفكر، إذن أنا موجود» ولكن «أنا أحس، إذن أنا موجود». إنه يستمتع بالإحساس بالمشاعر ومعاينة كونه يحس بها، من خلال مشاهدته لذاته. عبر نوع من الازدواجية والانعكاس، يحاول أن يستمتع مرتين، الأولى وهو مأخوذ بالشعور، والثانية بالوعي بهذا الشعور. يريد في آن واحد الإحساس، وإمكانية قول ما يحس به. الكوجيطو الكارتيزي يحل محله الكوجيطو الشعوري.

التأمل والشعور هل هما غير متوافقان؟

مسألة الحياة الباطنية التي قمنا بفحصها تقودنا إلى تناول مسألة التأمل. نعلم أن مزاولة التأمل تثير حماسا حقيقيا لدى المجتمع الحالي. فهي تشكل فرعا أساسيا من أنشطة تطوير الشخصية وتقنيات الصحة الجيدة. تقوم الطوائف بتلقينها لأتباعها، كمثل

طائفة التأمل التجاوزي[9]، التي تحصي عشرين ألفا من المتأملين في فرنسا. يقدر عدد الأشخاص الذين يمارسون التأمل في فرنسا مليونين. هل هذه الممارسة متعارضة مع ما هو مثالي بالنسبة للإنسان الشعوري؟

للوهلة الأولى، التأمل والشعور يبدوان متعاكسان، التأمل يهدف إلى إلغاء أي اهتزاز، بمعنى إلغاء مظاهر الحياة الشعورية. المتأمل عليه الاسترخاء، وقمع عواطفه لبلوغ حالة من الصفاء. هذا ما يعبر عنه بوضوح المجاز الذي يتكرر كثيرا في خطابات الأساتذة الملقنين للتأمل، والذي يشبه «النفس» بمساحة من الماء، ببحيرة أو بمحيط. الهدف من التأمل كما يقولون، هو تهدئة هذا الماء وتخليصه من الأمواج، حتى تتسنى رؤية النفس كما لو كانت أمام مرآة. كتب سوامي سيفانندا ساراسفاتي وهو أستاذ روحاني هندي كبير، وصاحب كتاب يعد من المراجع في الحياة الباطنية: «لا يمكنكم تكوين فكرة عن أرواحكم، إلا إذا هدئت كليا أمواج بحيرات نفوسكم[10]» هذه الأمواج المسماة «فريتيس» vrittis في الثقافة الهندوسية تمثل «الأفكار التي تصعد إلى النفس» إنها، يتابع ساراسفاتي تكون أكثر هيجانا واضطرابا، كلما كانت محملة بالمشاعر، لا يسعنا أن نقول سوى أن نجاح التأمل لا يتحقق إلا إذا حذفت المشاعر.

لكن لنلقي نظرة عن قرب. في الحقيقة فإن تخلي المتأملين عن العاطفة هو ليس بالصورة الجذرية الظاهرة في المقاربة

9 - التأمل التجاوزي Méditation transcendantale: تقنية تأمل وضعها حكيم هندي يدعى مهاريشي. (المترجم)

10- ممارسة التأمل، دار النشر ألبن ميشيل، سلسلة «الروحانيات الحية» 1970، ص 60.

الأولى. وهكذا فإذا اعتبرنا الكلمات التي يستعملونها لوصف تجربتهم الداخلية، فإننا نجد أنهم يتحدثون بحماس عن «الشساعة الداخلية»، الكنز، مرفأ السلام الذي يقبع داخل نفوسهم. ولكن هاته الكلمات ليست بالمحايدة، ولها رنين عاطفي قوي. من اللافت للنظر كذلك ملاحظة أنه عندما يقوم أنصار التأمل بتحليل منهجيتهم، فإنهم يستخدمون عبارات هيدونية[11] وليس معرفية. يعترفون بأنهم في بحث عن أحاسيس داخلية غير مسبوقة وشديدة. التأمل موجه لإمدادهم بمتعة عميقة وخالصة، بطاقة نادرة هي في نهاية المطاف عبارة عن متعة. بانغماسهم في أعماق الأنا، هم لا يتوخون الاستغناء عن العاطفة للارتقاء لدرجة من السكينة المزعومة، هم يريدون فقط تذوق طعم تجربة شديدة. لا يتصورون التأمل كفعل إدراكي بارد، ولكن كغطس حلو في قرارة الداخل، يؤدي في حالة التوجيه الصحيح إلى رعشة الانتشاء. جميع أساتذة الحياة الباطنية، شرقيين كانوا أم غربيين، أشاروا إلى شدة تلك اللحظات القصوى. دوركهايم كان قد وصف الانبهار الذي يصيب الشخص حين يكتشف، بفضل التأمل، أناه الأساسي «النوميني[12]» الموجود تحت أناه الظاهري. عالم النفس السويسري ضخم من هذا الانبهار بالأنا الباطني عند اكتشاف الذات الغنية بصور ألفية، وبنماذج يستطيع كل شخص من خلالها اختصار الإنسانية جمعاء. عالم النفس ستنيسلاف كروف، أحد رواد علم النفس المتخطي للإنسان (Psychologie transpersonnelle)، أكد

11- نسبة إلى الهيدونية وهي نظرية فلسفية تعتقد أن البحث عن المتعة يشكل أساس الوجود الإنساني. (المترجم)

12- نسبة إلى النومينون، أي الشيء بذاته، وهو يمثل الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن أسفل الظواهر العارضة. (المترجم)

على قوة اللحظات التي يكون فيها الشخص مغمورا في قلب شخصيته، مما يجعله مجتاحا بإحساس محيطي يربطه بالكل، كعضي دقيق داخل عضي ضخم. أساسا، يعتبر المتأملون الروح كمصدر للذة، فهم يؤكدون على أن الحفر العميق في النفس يؤدي إلى اكتشاف ينبوع من الفرح اللامتناهي. الأنا العميق هو كنز يستخرجونه بنشوة، أطلنطس[13] مشوقة يستكشفونها ببهجة. الحياة الباطنية الدافئة بأشعتهم الذاتية وبما وراء إنسانيتهم، المتوقدة بالاهتزاز الناعم للنشوة؛ تمنحهم نوعا من الشبقية.

بهذا يكون التعارض الأولي بين ممارسات التأمل وعبادة المشاعر لاغيا، لا وجود لعدم التوافق بين ما هو مثالي للإنسان الشعوري وممارسات التأمل. قطعا، يبدأ التأمل بتعطيل المشاعر، ولكن الأمر لا يتعلق سوى بالتي تتشكل على سطح الحياة النفسية، لأن هناك أنواعا أخرى من المشاعر لا تتلاشى هكذا بنفس الطريقة.

فحالما يتحقق ذلك الفعل الأولي المحرر، ينقل التأمل الشخص في عمق الأنا، والذي هو مصمم كخزان للمشاعر. الالتزام في التأمل يعد أولئك الذين يبذلون مجهودا للمواظبة عليه بنوع من الغبطة المحيطية والانبهار عند ملاقاة شساعتهم الداخلية. إنه يقود إلى النشوة والطعم الفريد لما هو متجاوز للإنسان. هناك مثال معبر على كل هذا، يتجلى في دعوة طائفة الرائيلية، التي أسسها كلود فوريلون، إلى «تأمل شبقي» يؤدي إلى «انتعاظ كوني». مثل هذه التعبيرات توضح العلاقات الوطيدة التي تجمع في النهاية، الحياة الشعورية والحياة التأملية. نلخص هذه النقطة بالقول بأن التأمل

13- جزيرة أسطورية، جاء ذكرها في محاورتين لأفلاطون. (المترجم)

يزيح المشاعر السطحية، «الفريتيس»، ليُحل محلها المشاعر التي تأتي من نواة الشخص. يتخلص من الطبقات السطحية للحياة الشعورية، ليصل إلى أماكن مطمورة في الطبقات العميقة للأنا. قليل من التأمل يبعدنا عن المشاعر، كثير من التأمل يرجعنا لها.

شبح عدم التأثر

من أجل إتمام صورة الإنسان الشعوري، يبقى أن نصف، بطريقة متباينة، أشكال الحياة التي تتعارض معه. كأي نوع بشري، سوف يصبح أكثر بروزا إذا واجهناه بنقيضه. في هذا الصدد، أحد الشخصيات الأكثر تعارضا مع ما هو مثالي للإنسان الشعوري تتمثل في الحكيم الرواقي. ليس هناك شيء أكثر ابتعادا من نمط عيشنا داخل المشاعر ومن خلالها، من النموذج الذي وضعه سينيك ومارك أوريل. هذا الأخير سن كقواعد للحياة الصبر، عدم التأثر، ولامبالاة الروح. كان يدعو إلى تحكيم «الروح العقلانية» على «المشاعر الرقيقة أو الشديدة للجسد». في مواجهة الأحداث، كان ينصح بموقف متقبل، شجاع، مستسلم. فكان يكتب في خواطره أنه «يجب تقبل ما يحدث» محددا أنه «لا يجب التأثر، ولا الانفعال، ولا الهلع [14]». إذا قمنا بالعد، فإننا نجد أنه في نفس الجملة، تمت الإشارة إلى ثلاثة مشاعر رئيسية. هذا الجهد الشديد لبناء سد مضاد للمشاعر هو غريب كليا عن طباعنا المعنوية. إننا نعجز عن تقمص دور الفيلسوف الهادئ الذي لا يكدر صفوه شيء. مثالية مزاجه البارد هي في تناقض تام مع مثالية اندفاعنا العاطفي.

---

14 - مارك أوريل، خواطر،25، x، 8، x،في «الرواقيون»، نصوص مختارة ومترجمة من طرف جان بران، الصحافة الجامعية الفرنسية 1968 ،PUF.

بجاب الحكيم الرواقي الذي يعادي المشاعر، تقف شخصية أخرى تتثل في الإنسان العاجز عن إبداء مشاعره. المقصود هنا هو المرض النفسي المعروف تحت اسم «العجز عن قراءة المشاعر» alexithymie، الذي يتسم بلامبالاة الشخص بعالمه المحيط، وكذا الأشخاص الذين فقدوا قدراتهم الشعورية، نتيجة حادث أو عملية جراحية أو جرح دماغي. الحادث الأكثر شهرة، والذي كان الأمريكي فينيس كيج ضحيته، أصبح حديث الساعة في إنجلترا الجديدة واسط القرن التاسع عشر، ففي سنة 1848 تعرض هذا العامل في السكك الحديدية لشركة روتلاند بورلينكتون ريلرود لحادث خطير، حيث اخترق قضيب حديدي جمجمته، محدثا بذلك جروحا بليغة في قاعدة الدماغ والفص الجبهي. كيج بقي بمعجزة على قيد الحياة، ولكن طبعه تدهور بشكل كبير. مائة وخمسون عاما بعد ذلك أعاد عالم الأحياء العصبي أنطونيو دماسيو دراسة حالته انطلاقا من فحص هيكله العظمي والتقارير الطبية المعاصرة له[15]، كان كيج قد احتفظ بكامل ذكائه بعد الحادث، وظلت طريقة تعبيره عادية، ولكن طبعه تغير وعلاقاته الاجتماعية تدهورت. كان تشخيص دماسيو هو أن كيج فقد قدرته الشعورية.

هناك مثل مشابه ينقل عن شاب تم استئصال لوزته الدماغية[16] من أجل وضع حد لنوبات حادة من الصرع، ففقد على إثر هذه العملية كل اهتمام بالناس. كان قادرا على القيام بأي حوار وكان تفكيره سليما، ولكن كمثل كيج، وكما وصفه الصحفي العلمي دانييل كولمان، «كان يظهر أنه عاجز عن إبداء الأحاسيس ورصدها

15 - أنطونو دماسيو، «خطأ ديكارت» دور النشر أديل جاكوب، 1995.

16 - عضو صغير في قاعدة الدماغ. لا يجب خلطها بلوزة الحنجرة.

لدى الآخرين»[17]. هذه الحالة المرضية هي مثال صريح يرسم بدقة عبر علاماته السريرية، النقيض بالنسبة للإنسان الشعوري الذي يحظى بالأفضلية في هذا العصر. وهكذا فقد بقيت قدرات هذا المريض اللغوية والفكرية جزئيا سليمة بينما إحساسه بالمشاعر معطل، حيث لم يكن قادرا لا على الإحساس بالمشاعر ولا على رصدها عند مخاطبه. لقد احتفظ بمكتسباته الأساسية من الثقافة، بمعنى اللغة والعقل، ولكن ذكائه الشعوري كان مفقودا.

كل العصور قامت بوضع «الشخصية-النقيض» المتعارضة مع نموذجها المثالي، ليكون شبحا مخيفا يتم التركيز من خلاله على تصورها للإنسانية. عصر الأنوار عرف في بداية بزوغه متوحش أفيرون المشهور، الذي استقبله الدكتور إطار في سن الحادية عشرة. لكونه عاجزا عن التعبير عن اللغة المنطوقة، كان فيكتور يمثل انتصار الغريزة والعاطفة المنفلتة. كان هذا الناجي الصغير من غابات لكون (بفرنسا) بالنسبة لمنشطي حلقات الأسواق، الذين يستعرضونه أمام جماهير المتسكعين، يجسد اللامعقول الذي يسيطر على الفرد عندما يقصى من عملية التثقيف التي تصنع الإنسان. متوحش أفيرون كان ينتمي إلى المجال اللاإنساني.

مع عبادة المشاعر انقلب سلم القيم. حاليا، نقيض الأموسنتيانس، نموذجنا المثالي، هو الإنسان الذي مع امتلاكه للعقل واللغة، هو مجرد من الإحساس. المرادف الحديث لمتوحش أفيرون هو الشخص الذي لا يوقظ العالم فيه أي رنين شعوري، ما دام يعتبره بدون طعم. فتكون علاقاته في الحياة على شاكلة الصور

17- دانيال كولمان، «الذكاء الشعوري»، دار النشر «قرأت»، 1998، ص 34.

الأولى لفيلم «جوانح العشق»، خالية من الألوان؛ كمثل الأحمق حسب الكاتب الإنجليزي شيستيرتون، فقد كل شيء إلا عقله. بينما كان عصر الأنوار يهلع من الإنسان عديم الذكاء واللغة، بمعنى المجرد من المكتسبات الثقافية، فإن اللاإنسانية بالنسبة لنا هي متجسدة في صورة الإنسان المجرد من المشاعر، بمعنى المجرد من الطبيعة.

الفصل الرابع

«حرروا مشاعركم!»

هكذا، فإن عبادة المشاعر هي التعبير الأقصى عن الانفرادية، وتمثل قمة تقديس الأنا. بالنسبة للإنسان المعاصر، أي مشروع للانفتاح يمر حاليا عبر تجديد «الإمكانيات الشعورية».

لكن تحديد الهدف فقط لا يكفي، يجب كذلك الإشارة إلى وسائل الوصول إليه. ثقافة المشاعر ستظل جامدة بعد تحديد هدفها، من دون اقتراح منهجية معينة. ماذا يفيد أن نردد على مسامع الأشخاص، كما يفعل أخصائيو تطوير الشخصية، أنهم يملكون مؤهلات شعورية. ماذا يفيد تضخيم مثالية الإنسان الشعوري، إذا لم يتم في نفس الوقت الإشارة إلى الطريقة التي يمكن بها تجديد هذه المؤهلات؟ الإنسان المعاصر لا يقبل أن ينضج إحساسه بطريقة عشوائية. لا يريد أن يستسلم للصدفة. تلزمه خطة وأدوات واستراتيجيات. لا بد أن الحضارة التقنية التي يعيش فيها ستمكنه من ذلك... عبادة المشاعر ستصبح مكتملة بفضل الأدوات المتوفرة التي ستساعدنا على إثراء مشاعرنا.

كل هذا متوقف أساسا على تحرير المشاعر «حرروا مشاعركم»: هي القاعدة، الأساس للانفتاح في عصرنا. كل شيء يسير كما لو

كان التوق إلى الحرية، التي تحققت في المجال السوسيوسياسي، يتجه نحو مجال الخصوصية. في عصر ما بعد الحداثة، ما يتوخاه المشروع الفردي ليس هو فقط الانعتاق من السلطات الاستبدادية، وانفتاح الحريات العمومية، وفرض الحرية في مجال الأخلاق (كل هذا تحقق)؛ ولكن أيضا الحصول على الحق في التعبير عن الحالات العاطفية. المشاعر هي الحدود الجديدة للنزاع من أجل الحرية.

الكفاح ضد القمع الاجتماعي للمشاعر

هذا التحرر الشعوري هو عملية تتم على ثلاثة مراحل. المرحلة الأولى هي سوسيولوجية. الإنسان الذي يريد تطوير حياته الشعورية سيكون مجبرا على البدء بالتحرر من الإكراهات الاجتماعية المفروضة على المشاعر. إعادة تأهيل المشاعر لا تنفصل عن الاحتجاج على المحظورات الاجتماعية. لأن المجتمع كان وإلى يومنا هذا، يقمع التجاوزات الشعورية ويضع أمامها عدة حواجز، فقد كان يزعم أنها تسيطر وتحد من التعبير عن الإحساس.

ليس هناك وثيقة أكثر إفادة في هذا الصدد من كتب آداب التعامل المنشورة في القرن 19. هذه الكتب وضعت قانونا دقيقا للآداب، كانت مهمته الأساسية هي الحد من المشاعر، فقد شكلت قواعد الآداب كمّا من العوائق الكابحة لها. قراءة هذه الكتب تمكن من قياس مدى الانضباط الشعوري الذي كان أجدادنا يخضعون له[1]. على مائدة الطعام، في الصالون، في الحفلات الراقصة، في الحوارات، في الأماكن العمومية، عند الزيارات التي تقام حسب

1 - الرجوع لمؤلف الكاتب «من الآداب، خواطر في فن التعامل». دور النشر جوليار، 1991.

طقوس معينة، الرجل والمرأة كانا ملزمين بكبح انفعالاتهما وإخفاء مشاعرهما. كان يجب التخفيف من الابتهاج، تجنب الاستعراضات الصاخبة للفرح، إخفاء الحزن، تقليل الحماس، كبح الاندفاع نحو الإعجاب، إسكات الاشمئزاز، حجب الميولات والممقوتات، والضحك بحساب. مجتمع الآداب كان يفرض على الأشخاص التحلي ببرودة الدم والتحكم في النفس. أداة تافهة كالمروحة كان لها دور محدد في إطار هذا التنظيم الاجتماعي للمشاعر، فقد كانت تمكن المرأة من إخفاء وجهها عندما يتملكها إحراج أمام الناس يؤدي إلى احمرار وجهها، وكان هذا الأمر لا يمر دون شد الأنظار وإثارة التعليقات. المروحة كانت تمكن من إعطاء فرصة لضبط النفس... بعد مائة وخمسين سنة، يحس القارئ الذي يغوص في كتب الآداب هاته، بشعور قوي من الضغط النفسي.

عالم الاجتماع الألماني نوربير إلياس أوضح كيف أن قواعد الآداب المفروضة في القرن 19 كانت موجهة للتصدي لموجة المشاعر التي برزت في الغرب مع نهاية العصور الوسطى. ففي كتابه «حركية الغرب»، شرح كيف أن الخط الذي وجه حضارتنا كان هو القمع الشديد للإحساس، حيث شكل قانون الآداب جهازا أساسيا داخل الترسانة المخصصة لإعادة ضبط السلوكيات. النوع البشري الذي تم التوصل إليه على مدى قرن من العمل على «تحضير الأخلاق» (وهي عبارة مأخوذة عن إلياس)، يختلف كثيرا عن سلفه في العصور الوسطى. أوضح إلياس أنه في العصور الوسطى «الانفعالات والمشاعر كانت تتدفق بحرية أكثر وبوضوح

أكثر»[2]. البنية الشعورية للأشخاص كانت تتميز بتلقائية كبيرة. نفسية العصور الوسطى كانت عبارة عن خليط من «الشفقة القوية، الخوف من النار، أحاسيس الذنب، صيحات الضحك، نوبات مفاجئة من الكراهية والغضب (...) مع مرور مفاجئ من حالة نفسية إلى أخرى[3]». الحياة الشعورية كانت مفعمة بالألوان، تلقائية، متنوعة، متقلبة، بدون حواجز، كما يؤكد على ذلك المؤرخ يوهان هويزينكا في كتابه «خريف العصور الوسطى»[4].
منذ ذلك العهد بدأت حركة تحرير المشاعر، التي تنتشر حاليا، تأخذ كل معانيها. يمكننا ترجمتها على أنها تمرد على نظام متعدد القرون. بزعمه أن المشاعر لا يجب الهروب منها ولكن على العكس البحث عنها وزرعها، بالتصريح أنه لا يجب الخوف من المشاعر ولا يجب إخفاؤها، فإن الإنسان يكسر الطابو[5] المسجل في الثقافة الغربية منذ خمسة قرون، يقوم باختيار ثقافي ثوري يسجل به انقطاعا في التاريخ الغربي. منحنى قمع الأحاسيس الذي استمر في الصعود منذ عصر النهضة وصل في أيامنا الحالية لنقطة الرجوع ليبدأ بالنزول. بالطعن في القواعد الاجتماعية التي حكمت العاطفة منذ نصف ألفية، تدشن عبادة المشاعر عهدا جديدا من التأريخ الغربي.

تحرير انتقائي

من جهة أخرى فإن الصفة التحررية ليست ممنوحة لكل المشاعر دون تمييز. إذا أمعنا النظر، يظهر لنا في الواقع أن تحرير المشاعر

2- نوربير إلياس: «تحضير الأخلاق»، دور النشر كالمان ليفي، 1991، ص 291.
3- نفس المصدر السابق.
4- دار النشر بايوت، 1989 الرجوع للمصدر خصوصا الفصل 1 «الطعم المر للحياة».
5- طابو: المحظور في نظر المجتمع. (المترجم)

الذي نشهده في أيامنا هو انتقائي. الإنسان المعاصر يكرم بعض المشاعر ويحظر أخرى، معيدا بذلك، شاء أم لا، تشكيل معايير السلوك.

هكذا، ففي العلاقات المهنية والاجتماعية، هناك ضرورة ثابتة تفرض على الشخص أن يظهر هادئا، لطيفا، محبوبا. قاعدة التصرف هذه تضع حدا للتعبير عن المشاعر السلبية. ليس بمقبول إطلاقا، مثلا، الظهور الحزين في العموم، كما يشهد بذلك اختفاء العلامات الخارجية للحداد. شعور آخر يخضع للسيطرة وهو الغضب. جاك كوسنيي، الذي هو في نفس الوقت عالم نفس وعالم أخلاقيات، ينقل نتائج بحث أوروبي قائم على ملء استمارة، يظهر أن «الشعور الأقل ضبطا هو الفرح والأكثر ضبطا هو الغضب»[6]. هذا الفرق في التعبير هو دليل واضح على الانتقائية. باستثناء أن يكون ذلك في إطار علاج نفسي، فنحن لا نتحمل أن ينفجر الآخرون من الغضب؛ وهذا يفسر، في المقام الأول، بكون الغضب يفسد العلاقات الإنسانية، وهو شيء غير مقبول بتاتا في زمن يتجه فيه الاقتصاد نحو قطاع الخدمات، حيث تكثر العلاقات المباشرة وجها لوجه. في نشاطاتهم المهنية، يكون الأشخاص في احتكاك دائم ببعضهم البعض لإنجاز مهمات التواصل، التشاور، التنسيق، التفاوض. فاعلية هاته المهمات تتوقف بشكل كبير على القدرة على إبداء الصبر واللطف.

الغضب مرفوض أيضا بسبب علاقته مع القيم العسكرية. كنا نتقبل فيما مضى أن يدخل قبطان كبير، وهو رجل حرب، في

6- « بسيكولوجيا المشاعر والأحاسيس»، دور النشر ريتر، 1994، ص 103.

غضبة «هوميروسية»[7] لكننا لم نعد نطيق هذا التصرف في مجتمع مسالم وديمقراطي. بصفة أكثر عموما، أليس الغضب من الصفات الذكورية؟ بتركيزه على الفحولة، يظهر الغضب كوسيلة للتأكيد على الجنس الذكري، وهو ما يجعله غير محبب في زمن يروج للقيم الأكثر أنوثة، من اللطافة والحنان. ختاما، يظهر الغضب كحالة نفسية مرضية. عند مواجهة شخص يغضب، يراودنا دائما سؤال: هل هو إنسان عادي؟ أي خلل يختبئ وراء هذا التعبير الأخرق عن النفس؟

العمل على الجسد، مقدمة للعمل على الذات

نصل إلى المرحلة الثانية من تحرير المشاعر. لا يكفي إزاحة الضغوطات الخارجية ورفع المحظورات الاجتماعية. لكي يكون الإنسان شعوريا بالكامل، يجب عليه أن يقوم كذلك بالعمل على ذاته. طقوس المشاعر تحرك لهذه الغاية ترسانة من الأدوات المستعارة من العلاج النفسي ومن تقنيات تطوير الشخصية وتقنيات الصحة الجيدة.

هذا العمل على الذات هو قبل كل شيء عمل على الجسد. في هذا الصدد لا ينبغي الخطأ في فهم حماس معاصرينا بخصوص الأنشطة الجسدية. أكيد أن هذه الأخيرة تحقق الحاجة إلى البقاء في حالة جيدة والحفاظ على الصحة، فتقديس الجسد يفسر أولا بالرغبة في منع الشيخوخة؛ ولكن هذه الأنشطة مرتبطة كذلك بتربية الإحساس. فهي موجهة لجعل الأشخاص «يعون الإحساس

7- نسبة لهوميروس وهو شاعر إغريقي أسطوري. يقصد هنا «ملحمية». (المترجم)

الجسدي»، كما يقول أخصائيو تطوير الشخصية، وبهذا يصبحون أكثر استقبالا للمشاعر. فبفضل تمارين التموضع الجسدي، التمارين البدنية الخفيفة، تمارين تمديد العضلات، الاسترخاء، نعيد اكتشاف الغلاف الجسدي، نتعلم هذا الفعل البسيط للغاية الذي هو «الإحساس بالجسد الذاتي»، وهكذا نستعيد القدرة على الإحساس بالمشاعر.

من المميز أن نرى أن العمل الجسدي ينحصر غالبا في تمارين حواسية بسيطة. في حصص الصحة الجيدة وتطوير الشخصية، تعطى أهمية كبيرة لأنشطة بسيطة «كاللمس»، «الشم»، «الذوق». مركز دوركهايم وهو واحد من أهم أماكن تطوير الشخصية في فرنسا، يقترح دورات مخصصة «للعمل على الحواس الخمس». المشاركون يتعلمون من جديد، بطريقة منهجية، الأفعال الأساسية لحياة العلاقات، الروابط الأولية، التماس الحسي مع الأشياء والكائنات. برنامج بعض التدريبات يشبه إلى حد بعيد ما تقترحه المعلمات في أقسام الحضانة: «اكتشاف الماء في مسبح دافئ»، «اللعب بالطين»، «عجن الطين اللدائني»، «الرسم بالأصابع». الغاية من وراء كل ذلك هي كالتالي: إيقاظ الحواس من أجل إيقاظ الحياة الشعورية.

حاستا الشم والذوق بالخصوص مكرمتان، بسبب الروابط المميزة التي تجمعهما بالمشاعر. لهذا، فإن أسلوب الانفتاح على غرار العلاج الغرائزيInstinctothérapie يدعو إلى الاتصال الشمي مع المأكولات، وينصح باستهلاكها نيئة؛ لأن الروائح والنكهات تعد من الناقلات الحسية القوية. فلديها خصوصية العمل على بعث ذكريات محملة بمشاعر قوية. من منا لم يسبق له أن مر في سن رشده بتجربة لعطر من الزهور، لنكهة، لبخور، لأريج، لرائحة طبق، لرائحة من المطبخ، لرائحة خزانة قديمة، أو

لمخزن مليء بالغبار؛ وقد تم نسيانها لمدة طويلة، فتذكرنا على غفلة بماض بعيد، بشخص محبوب، أو بحدث في الطفولة. هذا الاستحضار الغامض يحدث استرخاء حنينيا للماضي.

بعد التمارين الجسدية، هناك تمارين التنفس. يعتبر أخصائيو الصحة الجيدة وتطوير الشخصية التنفس أداة مميزة لاستكشاف «الحس». أكثر نصيحة يوجهونها لزبنائهم هي «التنفس بوعي». المشاركون مدعوون للمتابعة الواعية لمسار الهواء الذي يجري داخل قصبتهم الهوائية ليملأ الرئة ويدفع الحجاب الحاجز. يلح المعالجون على عدم تحريك القفص الصدري: إنها «الهارا» (البطن حسب علم التشريع الروحاني الياباني) التي يجب أن تنتفخ... في كتابه «مركز الكائن» يلاحظ كارل فريد فون دوركهايم أنه بعد ألفيات من النسيان، يعيد الإنسان الغربي اكتشاف أسرار التنفس. يمكننا إضافة أنه بهذا يكون بصدد إعادة اكتشاف المشاعر، ما دامت هذه الأخيرة مرتبطة بشدة بالتنفس. التنفس هو تعبير فيزيولوجي متواجد في كل المشاعر، إلى جانب حرارة الجسم، الانفعالات الكهربائية السطحية، إيقاع القلب، التوتر العضلي والإفرازات الغدية. إنه ككاشف أو مقياس للزلازل، يسجل أدنى تغير في الحياة الشعورية. الوعي بعملية التنفس يشكل إذن، أساسا، ما سميناه في الفصل السابق، بالكوجيطو الشعوري. قل لي كيف تتنفس، أقول لك كيف هي حالة حياتك العاطفية...

العلاجات النفسية والمشاعر

لكن العمل على الجسد، بدوره، لا يكفي. يجب أيضا التسلل إلى أعماق النفسانية لمواجهة المقاومات اللاشعورية التي تضع

حاجزا أمام المشاعر. يجب التغلب على الخوف من المشاعر، التوقف عن صدها، والمغامرة بخوضها. نتناول إذن الإجراء الثالث لتحرير المشاعر، والذي يدخل في إطار العلاجات النفسية.

سيكون تبسيطا مبالغا فيه، القيام بخلط جميع تيارات العلاجات النفسية في نوع واحد. من التحليل النفسي إلى العلاج الإدراكي، من الطاقة الإحيائية إلى التحليل الوجودي؛ التنوع في المقاربات والمفاهيم كبير جدا. غير أنه في خضم هذا الحقل الموسيقي ذو الأصوات المتعددة، هناك نظرية موحدة تظهر جليا فيما يخص إشكالية المشاعر. وراء اختلافاتهم النظرية والعلاجية، يتقاسم المختصون نفس الرؤية فيما يخص الحياة الشعورية. يوجد عند نقطة الانطلاق، حسب رأيهم، داخل كل إنسان طفل يمتلك نعمة لا تقدر بثمن: القدرة على التعبير الحر عن المشاعر. هذا الطفل يكون بالتناوب سعيدا، تعيسا، غاضبا، مشمئزا، مرعوبا، مندهشا؛ ويتمتع بالخصوص بميزة خاصة وهي التعبير التلقائي عن كل ما يحس به. بإعادة صياغة عبارة روسو، يمكننا كتابة «المشاعر تولد حرة»[8].

«الأطفال ولدوا أبرياء، بدون كبت أو شعور بالذنب تجاه أحاسيسهم» يقول ألكسندر لوفن[9]، وهو تلميذ لوليام رايش مؤسس علم الطاقة الإحيائية، ويتابع بقوله أنهم يعرفون «حالة فريدة من نوعها من الهناء». ولكن، كما في فلسفة روسو، الحرية تختفي يوما، لتحل محلها العبودية، الطفل يطرد مبكرا من جنة التلقائية. «المشاعر ولدت حرة، وهي في كل مكان مقيدة...». المستقبل

8- «الإنسان يولد حرا، وهو في كل مكان مقيد»، من كتاب «العقد الاجتماعي» الجزء الأول، الفصل الأول.

9- «الفرحة المستعادة»، دار النشر دانجل، 1995، سلسلة «النفس – الجسد»، ص 61.

الشعوري للإنسان الصغير محكوم عليه بالأذى والمسخ. مشاعر الطفل لا تلبث أن تصطدم بالممنوعات، وهكذا يتم التضحية بها باسم السلطة والأخلاق. هذه العملية الصارمة من الكبت تمضي في طريقها، فتضمر الإمكانيات الشعورية عوض أن تتفتح. الطفل يكتشف أن هناك مشاعر مسموح بها وأخرى لا: «الولد الصغير لا يبكي»، «البنت الصغيرة اللطيفة لا تغضب»، «من البشاعة أن تكون عابسا»، «من القبح أن تكون غيورا»، «لا ينبغي الصراخ حتى ولو عند الفرح»... في هذا المجال، لكل عائلة آراؤها المسبقة الخاصة، التي تشكل ثقافة شعورية مصغرة قائمة بذاتها. هناك من تقدر الابتهاج الصاخب، وهناك من لا تتحمل أي تعبير عن الغضب، أو لا تعطي الحق في الظهور بمظهر حزين. عدا عن ذلك، فإننا نتعجل بإعطاء الطفل الذي يشعر بالحزن بعض الحلويات، فنصنع بذلك بوليميا[10] مستقبليا، تكون ردة فعله الوحيدة، في حالة الحزن، هي فتح ثلاجته.

بالتأكيد، ستنتهي هذه العادات بالاستقرار في الداخل، ستختبئ عميقا في النفسية ككل معيقات وكوابح المشاعر. الطفل يبتلع دموعه، يحتوي غضبه، يكبح فرحته. للحفاظ على حب والديه، يتخلى عن أجزاء كاملة من عواطفه، يزَوّر أحاسيسه. لكن المكبوتات لا يمكن تعطيلها إلى الأبد. المشاعر حاضرة دائما، تحيا حياة باطنية، وهذا ما تعنيه كلمة «اللاوعي» في قاموس علم النفس المعاصر: «مجموعة المشاعر التي نمتنع عن التعبير عنها، فنعجز فيما بعد عن الإحساس بها».

هذا الكبت يصحبه تصور معين، وهو التحكم المطلق في الحياة الباطنية. أحد الأحلام السرية التي راودت الأشخاص الذين كبتوا

10- نسبة لمرض البوليميا «boulimie» أو الشره العصبي وهو أحد اضطرابات الأكل يتسم بنوبات من الإفراط في الأكل. (المترجم)

مشاعرهم يتجلى في التمكن من السيطرة الكاملة على أنفسهم. وهنا أيضا تظهر شخصية منبوذة في ثقافة المشاعر تنضاف إلى جانب الحكيم الرواقي! الكبت يؤدي إلى الانقسام على الذات والانفصام في الشخصية: الشخص يرفض الاعتراف بأنه يحس بالمشاعر، فيقنع نفسه بالقول، لا لست أنا من يحس بهذا. هذا الرفض ونكران الذات يؤدي به إلى الانقسام إلى قسمين. عالم النفس الأمريكي أرثر جانوف وصف طويلا في كتابه «الصرخة الأولى» الأشخاص المكبوتين الذين انقطعت صلتهم بنفوسهم، فلم يعد لهم منفذ لأحاسيسهم وفقدوا الاتصال بوجودهم الداخلي.

الكبت لا يشكل بالطبع حلا مُرضيا. فعلى الرغم من إنكارها، تبقى المشاعر حاضرة. إنها تتخمر. تحت الغطاء الواقي للدفاعات النفسية، تمارس ضغطا صامتا وشديدا، فتصبح شيئا فشيئا مَرَضية، ويصبح الشخص معذبا بالخوف من الإحساس بالمشاعر، فيخشى أن تقوم باكتساحه وغمره، ويخاف من إطلاق العنان لها. أحد الدروس الثابتة في علم النفس السريري، والذي هو أيضا من مسلمات ثقافة المشاعر، يقول أن العذاب النفسي لا يأتي من الأحاسيس التي نعبر عنها، ولكن من تلك التي نبذل مجهودا لكبتها. ما يضر بالتوازن المعنوي ليس هو امتلاك شعور ما، ولكن عدم القدرة على الإحساس به. ما ينخر الناس، ليست هي المشاعر التي يحسون بها، ولكن تلك التي يرفضون الإحساس بها، لأنهم يخجلون منها أو لأنهم يخافونها. آرثر جانوف يختزل فلسفة الحرية الشعورية هذه في مقولة قوية: «الداء هو إنكار الأحاسيس، الدواء هو الإحساس بها»[11].

---

11 – الصيحة الأولية، المصدر المذكور أعلاه، ص 491.

العلاجات هل يجب أن تكون شفوية أم غير شفوية؟

العمل النفسي الذي يهدف إلى إعادة إرساء الحرية الشعورية يتمثل أولا في الوعي بعملية الكبت التي تَقَدَّم وصفها. وبعد ذلك سيصبح الأمر متعلقا بمواجهة هذا الكبت وذلك بفك الشبكة الضيقة للمقاومة. من أجل إعطاء رؤية شاملة لعبادة المشاعر، يجب علينا الآن تناول المرحلة الثانية من العمل على الذات. ما هي الأساليب التي تقترحها مختلف العلاجات النفسية؟ هذا السؤال ليست له أهمية أكاديمية فقط، سوف نرى أنه يعطينا كذلك إشارة ثمينة حول التوجه الحالي للإحساس.

أساليب العلاج النفسي يمكننا تصنيفها في نوعين مختلفين، حسب العمل المقترح هل هو شفوي أم غير شفوي. النوع الأول من المقاربات يعمل في إطار تواصل شفوي مع المعالج. في هذا الصدد تُظهر التحليلات النفسية والعلاجات الإدراكية والعلاجات النفسية الداعمة، تقاربا لا نقاش فيه، يتخطى اختلافاتهم. فكلها تعمل داخل نطاق التواصل اللغوي. إنها تهدف إلى ترميم القدرة الشعورية بفضل نشاط التعبير الشفوي، الذي يقوم المريض خلاله بالسرد وبتحليل أحاسيسه واستحضار ماضيه. إذا أردنا التعبير عن أحاسيسه بالكلمات، سنقول أنه يعطي تعليقا على وجوده، يحاول بمساعدة الكلمات حل لغز عذابه. الكوجيطو الشعوري هنا هو أساسا شفوي. تحرير المشاعر يرتكز في هاته الحالة على التصوير اللغوي.

أساليب المجموعة الثانية تتبع على العكس من ذلك طريقا غير لغوي. يتعلق الأمر بالعلاجات الجسدية أو الشعورية المسماة أيضا: «العلاجات الجديدة». نذكر في هذا الصدد كتاب الصيحة الأولى

لآرثر جانوف، كتاب «الولادة من جديد» لليونارد أور، «الطاقة الإيحائية» لألكسندر لوفن، «علاج الشكل» لفريتز بيرل، العلاج التلقائي لويلهلم رايش. نقطتهم المشتركة ليست هي التعليق على المشاعر أو تحليلها، ولكن الإحساس بها بشدة قصوى. في هذه العلاجات، لا يتعلق الأمر بالحديث عن الأحاسيس، إنما بعيشها. كما يكتب عالم النفس إدموند شارك الذي خصها بكتاب موثق «إنها تفضل المحسوس على المشروح»[12].

من هنا الأهمية الخاصة التي تحتلها أثناء العلاجات الصيحات، التحركات، الحركات، المرور للفعل، الدراما النفسية، التمرينات الصوتية، التقنيات التنفسية[13]. يحدث هذا غالبا في إطار جو ساخن لمجموعة من المرضى يكون تواجدهم في نفس المكان ذو فعل تضخيمي. الكلمة التي تتكرر باستمرار في حوارات المعالجين الذين يستعملون هذه الأساليب هي «الانطلاق». يتعلق الأمر، حسب ما يشرحون، بانطلاق المشاعر. اللجوء لهذه الاستعارة الميكانيكية تظهر أن تحرير المشاعر من منظور هذه العلاجات، لا يجب تناوله كعملية شفوية، وإنما مادية وطاقية.

فلنذهب إلى حصة من الطاقة الإحيائية. ندخل في قبو عمارة باريسية قديمة، حيث هناك عدد من المشاركين مجتمعين تحت قيادة المعالج. باب الولوج مبطنة، بحيث لا يسمع أي صوت من الخارج. على الأرض هناك أفرشة منشورة يضربها المرضى بالعصي بطريقة

12- الدليل العلمي للعلاجات الجديدة، دار النشر ريتز، 1995، مقدمة.

13- فيما يخص تقنيات التنفس المستعملة في «الولادة من جديد» وفي الطاقة الإحيائية، يكتب سيرج جينجر ما يلي: «التنفس الرئوي المفرط يقوم «بإسكار» المناطق القشرية بواسطة حالة من الحموضة المفرطة، فيحرر الطاقة التحت قشرية، الوطائية والحوفية، فيؤدي بذلك إلى ظهور صور ومشاعر، «علاج الشكل»Gestalt، ص 323، ملاحظة 36.

نشيطة، مغطون بالعرق، بوجه معوج من الغضب، يصيحون بقوة، في حالة قصوى من الهيجان. المساعدون يشجعون اندفاعهم. المعالج ينصح: «أطلق نفسك»... «اذهب إلى نهاية أحاسيسك»... «بالغ فيها»... «ضخم ما تشعر به»... الفراش ليس أداة محايدة، ولكنه أداة «وسيطة». إنه يمثل أحد الأقارب، الرفيق، أو بعض الأشخاص الآخرين المكروهين، الذين نصب عليهم حقدا متراكما منذ فترة طويلة. الغضب المكبوت ينتشر كإعصار يجتاح المريض. الكراهية تجد أخيرا متنفسا لها! إذا كان هناك شخص يشعر بالمرارة تجاه أمه فإننا لا نطلب منه، كما هو الحال في علم النفس التحليلي، أن يقوم بتحليلها. فالأمر لا يتعلق بالاكتفاء بتفسير الإحساس، إنما بالعيش فيه مرة أخرى، وذلك بالضرب على الأفرشة بدون تحفظ، وهو ما يمكن استبداله في حصص «علاج الشكل» Gestalt، أو العلاج التلقائيvégétothérapie (أساليب لها علاقة بعلم الطاقة الإحيائية)؛ بدمية أو كرسي فارغ. الهدف هو إعادة تمثيل مشاهد الطفولة، بأقصى ما يمكن من الدقة، عندما كان يجب كبح المشاعر، عند تعرضها للقمع.

صحيح أنه من وقت لآخر، يتم استخدام الكلام أثناء هذه الحصص، ولكن دائما بطريقة «مباشرة» وذلك بمخاطبة الوالدين، الرفيق، كما لو كانوا موجودين. في هذا الصدد يشير آرثر جانوف إلى «الفرق الشاسع بين الحديث عن الأحاسيس مع الطبيب، والحديث المباشر مع الوالدين كما هو الحال في العلاج الأولي»[14]. خصوصية هذه العلاجات الشعورية هي كونها لا تضع داخل

14- الصيحة الأولى، المصدر المذكور أعلاه، ص 294.

المشهد أنا يتحدث عن أنا آخر. بمعنى أنها لا تضع الشخص بعيدا عن نفسه، محميا بقلعة من العبارات الشفوية، بل يُطلب من المريض الشعور بالأحاسيس، عوض تغطيتها بالكلمات. يضيف آرثر جانوف قائلا «إنه حقا الطفل الصغير الذي يعبر عن حقائقه، وليس الراشد الذي يشرح بهدوء حالة الطفل الذي كان يمثله». المريض لا يكون في حالة تصور، وإنما في حالة انبعاث حي.

فلنستمع إلى شهادة ماكس باجي، الذي هو في آن واحد عالم نفس سريري ومحلل رايشي[15]. يكتب مشيرا إلى الفرق بين العمل الشفوي للتحليل النفسي (عمل «تحليلي»)، والعمل الذي يُنجز خلال العلاج النفسي الشعوري: «لقد شد انتباهي، خلال تجربتي العلاجية، الفرق بين التعبير عن الرغبة في الموت على مستوى الكلمات، وعلى مستوى المشاعر[16]». يلخص ماكس باجي فكرته في جملتين لا تتركان أي شك في شدة استرجاع الأحداث خلال هذه الحصص: «الوعي خلال العمل التحليلي بالكراهية تجاه الأم والرغبة في قتلها شيء، وإيجاد الرغبة في الخنق في اليدين أثناء ربطهما للوشاح، شيء آخر»...

من وجهة نظر التحليل النفسي الفرويدي، يمكن اعتبار هذه التجاوزات الشعورية كسلوكيات رجعية، حيث يعبر المرور للفعل عن انهيار آلية دفاع المريض. إذا أقدم المريض على هذا النوع من الهستيريا خلال علاجه بواسطة التحليل النفسي، فإنه يتم إعادة النظر في المنظومة ككل، عوض التشجيع على ذهابها أبعد من ذلك[17].

15- نسبة إلى عالم النفس النمساوي فيلهلم رايش. (المترجم)

16- «أثر أو اتجاه»، النظام الشعوري، منشورات رجال ومجموعات، 1986، ص 164.

17- علم النفس التحليلي لا يقبل المشاعر إلا في إطار التواصل الذي يجمع المريض بمحلله. المشاعر يتم توجيهها بهذه الطريقة. من بين ما يدل على ذلك، كون كلمة «مشاعر» غير

ليس من اختصاصنا الحكم على القيمة العلاجية لهذه الأساليب المختلفة، أو الحكم بكون الأساليب الشعورية هي أكثر فاعلية من الأساليب الشفوية. على المختصين القيام بذلك. ليس بإمكاننا كذلك الحكم على مسألة الأخطار العلاجية التي يطرحها معارضو العلاجات الجديدة، الذين يؤكدون على أن التفريغ العنيف للمشاعر يؤدي إلى رجوع غير متحكم فيه للمكبوتات، وبالتالي إلى خلل في توازن الشخص. خطر هذه الأساليب، كما يؤكدون، هو التعرية على مواد اللاوعي بطريقة سريعة.

في المقابل، ومن وجهة نظر سوسيولوجية، من المثير للاهتمام ملاحظة شعبية هذه العلاجات الجسدية والشعورية. الحظوة التي تتمتع بها لدى الجمهور تؤكد نظريتنا حول عودة المشاعر، أساليب التحرير التي تتبناها، تتناسب كليا مع نموذج الإنسان الشعوري الذي صممه المجتمع، وجوها الحماسي والهائج لا يمكن له إلا أن يليق لمعاصرينا التواقين للانفعال، في إطار بحثهم الدائم عن الأحاسيس القصوى. عبادة المشاعر تطغى في هذه الحالات الهستيرية الشكل والمتفجرة التي لها سلوكيات الترانس الشاماني. بالفعل، فكل شيء يشجع المرضى المأخوذين في حالة من الهستيرية التشنجية، على التصرف كشامانيين، وهم الكهنة الساحرون في المجتمعات البدائية الذين يمارسون تقنية الترانس. لهذا فإنه

موجودة في «قاموس علم النفس التحليلي» للابلونش وبونتاليس (PUF). علم النفس يعتبر المشاعر في العمق كظاهرة ثانوية، ويفضل عليها الانفعال، الذي يعني إما إشباع النزوة (في هذه الحالة لا يهتم المحلل النفساني به)، أو إشارة إلى النزوة، وهو ما يؤدي إلى إحالة المشاعر إلى النفسية. الرجوع لتوضيحات ماكس باجي، المصدر المذكور أعلاه، ص 71، 77 و107.

يدخل في صميم بحثنا بخصوص عبادة المشاعر تسجيل الاهتمام الذي تثيره حاليا الشامانية. الأنثروبولوجيون والسوسيولوجيون يضاعفون المقالات حول هذا الموضوع. الشامانية تتصدر عناوين المجلات الخاصة بالدين. دورات تدريبية في الشامانية يتم اقتراحها من طرف المختصين في تطوير الشخصية. الشامانية مثيرة لأنها تدفع الحياة الشعورية إلى التوهج، فهي تحقق الحلم بالتحرير الكامل للانفعالات.

العلاجات الجديدة تتوافق كذلك مع عبادة المشاعر، وذلك عن طريق الدور الذي تخصصه للجسد. اللجوء إلى الجسد يُبرر، حسب وجهة نظرها، بفكرة أن المشاعر المكبوتة ليست معزولة في اللاوعي النفسي «اللامادي»، إنها، يقول أنصار هاته العلاجات، مخزونة ومتراكمة في شكل توترات جسدية. وهكذا فإن بعض تصلبات الظهر أو الوجه، وبعض انحباسات القفص الصدري قد تكون تعبيرات جسدية عن الكبت الشعوري. كما كان يقول ويلهلم رايش، وهو أول من اكتشف هذا التحليل السريري: المشاعر تتجمع على شكل «درع عضلي». لعلاج المرض، يجب إذن انتشال المشاعر واقتلاعها من سجنها العضوي، وذلك عن طريق خلع الدرع باستخدام الحركة، الصياح، التنفس، الترانس. الإنسان المعاصر لا يمكنه إلا أن ينجذب إلى هذا النوع من العلاجات التي تجمع بين العودة إلى المشاعر والعودة إلى الجسد.

أخيرا، فإن العلاجات الجديدة تشجع الميول اللافكري الذي يميز عبادة المشاعر. الانفتاح الشخصي الذي تدعو إليه لا يتمثل في حل لغز الذات بصبر عن طريق التعقل، ولكن بالمرور للفعل. إنها تستبدل مجهود التفسير الشفوي بحالة متفجرة من

ردة الفعل التنفسية[18]، فعوض التحليل الذاتي، تفضل الانغماس في الإحساس. بتعطيلها للكلام العقلاني، تُفعِّل هذه العلاجات التوجه اللافكري للكوجيطو الشعوري.

تجدر الإشارة هنا إلى أن التحفظات التي يبديها أنصار العلاجات الشعورية حيال الكلام هي، إلى حد ما، معقولة، حيث أن الكلام ليس دائما حليفا للمشاعر. إنه سيف ذو حدين. أكيد أنه عن طريق الكلام نستطيع التحرر من الضغط العاطفي حيث أننا «نفصح» عن مشاعرنا. لكن هناك كذلك شكل خفي من قمع المشاعر بواسطة الكلام. الكلمات تحجب في بعض الحالات الحالة النفسية أكثر مما تكشفها. المبالغة في الحديث تضعف الأحاسيس. عندما نتحدث كثيرا، نوشك على فقدان ما نحس به. كلنا يعرف أولئك الأشخاص الذين بثرثرتهم المتواصلة يخنقون الإحساس، فكلما تكلموا أكثر كلما أحسوا أقل، فلنعطي إذن المبادرة للعلاجات الجسدية: تحرير المشاعر يتطلب أحيانا شيئا آخر غير الكلام. يجب أن يتدخل الجسد أيضا.

التطهير«Catharsis»، بين البارحة واليوم

عملية التحرير الشعوري التي جاء وصفها في هذا الفصل تثير مفهوم التطهير. التطهير يعرف على أنه ارتياح يأتي بعد حالة حادة من التوتر. بعد أن ينتابه شعور قوي، يحس الشخص بالارتياح. لكن هذه الكلمة تخضع حاليا لتحويل في معناها اللغوي، وهو ما يكشف عن المسار الذي تسير فيه أحاسيسنا. بالنسبة للقدماء،

18- ردة الفعل التنفيسية abréaction هي اسلوب يستخدم في علم النفس التحليلي لتفريغ المشاعر المكبوتة، ليتم إبطال مفعولها المرضي. (المترجم)

كان التطهير موجها لتفريغ المشاعر. كان الأمر يتعلق بتقاديم متنفس للأحاسيس حتى يتسنى طردها، فيتم التعامل معها على أساس علاجي. في هذا الصدد، التراجيديا اليونانية لعبت، وهذا شيء نعرفه، دورا مهما. في كتابه «فن الشعر»، اعتبر أرسطو التراجيديا عرضا «يثير الشفقة والخوف، فيعمل بذلك على التفريغ الخاص لهذه الأنواع من المشاعر[19]». كان القدماء ينظرون إلى المشاعر بنظرة سلبية، فكانت تعتبر «كسم» أو «كمزاج سيء» يجب التخلص منه. كان المتفرج يخرج من عرض لسوفوكليس أو إسخيلوس بروح مطهرة، ليتمكن بعد ذلك من أن يصبح من جديد إنسانا عقلانيا.

يعتبر الشاعر السويسري رَسين مخلصا لفكرة التطهير هاته، عندما يكتب على هامش نسخته من كتاب «فن الشعر لأرسطو»، ما يلي: «التراجيديا، بتهييجها للفزع والشفقة، تفرغ وتعدل هذا النوع من الانفعالات. هذا يعني أنه بتهييجها لهذه الانفعالات، فإنها تنزع منها ما هو مبالغ فيه وما هو مشوه، وتعيدها إلى حالة من الاعتدال تتناسب مع العقل[20]». التطهير كان له إذن دور ضمان سيادة الإنسان المفكر على الإنسان العاطفي، نفس وجهة النظر للأديب الفرنسي كورني نقرؤها في مقدمته من كتاب «دوم سانشي دركون»: «التراجيديا تحث على تفريغ وتعديل وتصحيح وحتى استئصال الشغف الذي بداخلنا»[21].

19 - فن الشعر، 1449 ب 27.

20- طبعة مسنار، مجلد V، ص 477، مذكور في آن أنسلين شوتزنبيركر، مفردات تقنيات المجموعة، دار النشر دوليبي، 1971، ص 38.

21- نفس المصدر ص 38.

في أيامنا هذه، تغير معنى كلمة «تطهير»، حيث أن معاصرينا، وخلافا للقدماء، لا يعتبرون حاليا المشاعر كسم، وإنما كثروة. النشاط التطهيري الذي يمارس في العلاجات الشعورية، عندما يسمح للمشاعر بالظهور، لا يهدف من وراء ذلك التخلص منها، وإنما الاستمتاع بها إلى أقصى حد. بالنسبة للإنسان المعاصر، الحاجة إلى الإحساس بهذه المشاعر تفوق الحاجة إلى كبحها. تقنيات الطاقة الأحيائية، الصيحة الأولية وعلاج الشكل هي تطهيرات غير موجهة للتخلص من المشاعر، وإنما للتمكن من الذهاب أبعد ما يمكن في ما هو محسوس. النموذج المثالي ليس هو الإنسان العقلاني المطهر من السم العاطفي، ولكن هو الإنسان الذي يتمتع بكامل إمكانياته الشعورية.

آرثر جانوف، مؤسس العلاج الأولي، لا يتردد في القول بأن المشاعر السلبية كالغضب، المرارة، الغيرة، الحزن، هي كذلك «جيدة». ها نحن بعيدون جدا عن التصور التقليدي «للمزاج الفاسد». لا شيء مما هو محسوس يمكن اعتباره مضرا للإنسان الحالي، بشرط أن يتسم بالصدق. لم تَعُد المشاعر تُعَدُّ دُمَّلا يجب فقؤه أو كمرض يجب علاجه، لأن ما هو مرضي، هو بالضبط منعها من الظهور. المشاعر هي في حد ذاتها هدف، وهي مرغوب فيها لكونها تعكس هويتنا العميقة. عبادة المشاعر تعمل على فرض تصور جديد للتطهير، يتلخص في القاعدة التالية: «الهدف ليس هو التحرر من المشاعر، وإنما تحريرها».

الفصل الخامس

الصورة الجديدة للإنسان

تنبع إعادة التأهيل التي تخضع لها المشاعر، كما رأينا، من الاهتمام الذي يوليه الإنسان المعاصر لانفتاحه. عبادة المشاعر هي الشكل الذي تأخذه حاليا عبادة الأنا.

في هذا الفصل، سوف نظهر كيف أن الظرفية العلمية تساهم، هي أيضا، في نجومية المشاعر. هناك نوع جديد من الأنثروبولوجيا هو في طريقه لرؤية ضوء النهار، وذلك تحت تأثير علم الأعصاب الأحيائي وعلم النفس. هذه الأنثروبولوجيا التي هي لاعقلانية في الأساس، تضع الأحاسيس في الواجهة، وتعتبرها عنصرا أساسيا في السلوك. عبادة المشاعر هي إذن ليست مجرد نتاج لموضة ما أو طريقة معينة للاهتمام بالذات أو حدث عابر في تاريخ أخلاقياتنا: إنها كذلك نتيجة مباشرة لتطور الأفكار العلمية.

الصورة القديمة للإنسان

ماذا يخبرنا العلم بخصوص المشاعر؟ للإجابة عن هذا السؤال، فلنرجع أولا بعضا من عشرات السنين إلى الوراء. في سنوات الخمسينات والستينات، كان علم النفس الأكاديمي لا

يعير اهتماما للمشاعر. يخبرنا دانييل كولمان ما يلي: «علم النفس الذي كنت أدرسه كان يجهل كل شيء أو تقريبا كل شيء عن آليات المشاعر[1]». عندما كان علم النفس الأكاديمي يتناول الحياة الشعورية، فإنه كان يفعل ذلك من خلال منظور اختزالي. كان يحكم على المشاعر حسب مقياس النفعية، ويقيِّمها فقط حسب معيار حركتها الفعالة. يتساءل علماء النفس: هل المشاعر لها دور تكيُّفي؟ ويعتبرون أن الجواب يتلخص في اختيارين: إما أنها أداة للكفاح من أجل الحياة، وإما أنها لا تصلح لشيء. على خطى شارل داروين[2]، كان البيولوجيون وعلماء النفس وأنصار نظرية التطور لا يقرون بإنقاذ المشاعر إلا باسم البراغماتية والمنفعية. مثلا: هناك خطر يظهر أمامنا، فيبدأ الخوف بتملكنا وتتسارع الدورة الدموية، فيحدث تغيير هرموني بشكل يجعلنا نمتلك طاقة أكثر تمكننا من الهرب. في هذه الحالة، تكون المشاعر قد مكنت الشخص فعلا من البقاء على قيد الحياة. أو تفاجؤون بشيء ترونه للمرة الأولى، غريزيا، تحملقون بأعينكم، وهكذا تتمكنون من رؤية الشيء الذي يدهشكم بشكل أفضل. أو كذلك: تلمحون مادة مقززة، فتُحدث لديكم رد فعل اشمئزازي يجعلكم تتراجعون في الحال، وهو ما يجنبكم الضرر.

في رأي نظرية التطور وعلم النفس، كان يجب أن تكون للمشاعر غاية عملية، أن تضمن حماية الشخص، وأن تعدل السلوك بحسب الظرفية، فإذا تعذر كل هذا لم يكن لها سبب

1- الذكاء الشعوري، الكاتب المذكور أعلاه، ص 8.

2- راجع شارل داروين، «التعبير عن المشاعر عند الإنسان والحيوانات»، منشورات لجنة الأعمال التاريخية العلمية، CTSH ، 1988

في الوجود. المشاعر لم يكن لها معنى في أحسن الحالات سوى كونها تفاعلات حيوية أو دعامات تكيفية. المختصون في نظرية التطور فسروا كيف أن الحيوانات والإنسان تزودوا تدريجيا خلال التطور الوراثي العرقي (أو الفيلوجيني[3])، بالقدرة على الانفعال الشعوري، وذلك للدفاع عن النفس في إطار «الصراع من أجل البقاء». وكانوا يضيفون: ظروف الحياة تغيرت في أيامنا الحالية بالنسبة للإنسان، بحيث أنه ما كان إيجابيا قديما، أصبح سلبيا في حضارتنا المعاصرة، المشاعر لم يعد لها تقريبا أية فائدة، فهي لم تعد تشكل ورقة رابحة في الصراع من اجل البقاء. أصبحت عاملا في انعدام التكيف وإعاقة تتسبب في اختلالات حركية. إنها اضطراب وخلل وظيفي وتدهور في السلوك. بالنسبة لعلم النفس الأكاديمي لسنوات الخمسينات والستينات، كانت المشاعر مرادفا «لخلل عقلي». يظهر هذا بطريقة واضحة في كون كاتب مثل بيير جانيت اعتبر أنها تتسبب في التحلل، وأنها «خطوة خاطئة للروح[4]». المشاعر كانت تعتبر كإهاجة قوية، كشحنة مفرطة، وكفائض في الطاقة عوض أن يتم توجيهه نحو هدف ما، عوض أن يكون بَنَّاء، يتفرق عبر الجسم على شكل تعبيرات فيزيولوجية، غدية ولاإرادية. بول فريس، الذي كون أجيالا من الطلبة في علم النفس، كان يعتبر المشاعر «كخلل في تكيف السلوك[5]».

3- نسبة إلى علم الوراثة الفيلوجيني phylogenèse، وهو علم يدرس العلاقات بين مجموعات الكائنات الحية من أجل فهم كيفية تطورها. (المترجم)

4- مذكور في كلود بريفوست، «الفلسفة النفسية لبيير جانيت»، دار النشر بايو، 1973، ص 180.

5- راجع «المشاعر»، بول فريس وجون بياجي، «بحث في علم النفس التجريبي»، مجلد V، الصحافة الجامعية الفرنسية (PUF). راجع كذلك، لنفس الكتاب مقال «المشاعر» في الموسوعة العالمية.

هذه الصورة القديمة للإنسان تنعكس في الأفكار التي عبر عنها آرثر كوستلر سنة 1967 في كتابه «الحصان داخل القاطرة[6]»، كوستلر كان متأثرا جدا بنظريات عالم الأحياء العصبية ماك لين، الذي تصور الدماغ البشري كتركيبة لثلاث بنيات: القشرة الدماغية القديمة (أو الجهاز الحوفي)، القشرة الدماغية المتوسطة، القشرة الدماغية الجديدة. داخل هذا التقسيم الثلاثي الأجزاء، كانت المشاعر، حسب ماك لين، تتموقع على مستوى القشرة القديمة، بينما كانت القشرة الجديدة مركزا للعقلانية. انطلاقا من هذه النظرية التشريحية للأدمغة الثلاث، رأى كوستلر أن تطور الكائن الإنساني الحديث (homonidés) كان يتوقف على ضمان سيطرة القشرة الجديدة على القشرة القديمة. كان يذكر كذلك، بأن اكتساب خاصية الوقوف المستقيم، ساعدت على تطور الدماغ البشري، ويظهر ذلك في تكون بنيات قشرية جديدة ضخمة. القشرة الجديدة العقلانية قامت فوق القاعدة القشرية القديمة الغرائزية والانفعالية. في هذه الظروف، كان المشكل الذي بحث التطور عن حل له هو ضمان سيطرة القشرة الجديدة على القشرة القديمة، ولكن هذا المشكل، كما اعتقد كوستلر، لم يحض بحل مرض. التطور البشري لم يبلغ هدفه، ومحاولة السيطرة باءت بالفشل. التطور ترك الإنسان في حالة من عدم الاكتمال مطبوعة بسوء التنسيق بين القشرة الجديدة والقشرة القديمة. كانت هذه هي الخلاصة المتشائمة لكوستلر، الذي كان يؤكد على أن الطبيعة البشرية تتضمن «عيبا في الصنع». الجهة العليا للدماغ، التي هي

6- دار النشر كالمان ليفي.

مركز العقل، لم تتمكن من فرض سلطتها على المستويات السفلى. تحت القشرة الهشة للسلوكيات العقلية، تغلي صهارة عاطفية وانفعالية. يوجد بداخل كل واحد منا «حصان» عنيد، مباغت، مستعد للهيجان.

عندما كان المجتمع يحلم بالتخلص من المشاعر

هذه النظرة إلى المشاعر على أنها واقع خطير، هي شيء مميز للصورة القديمة للإنسان. لفهم الشعبية التي كانت تحظى بها، يجب أن نضعها في سياق السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، حيث كان لدينا في الواقع، العديد من أسباب الخوف حيال المشاعر. ذكريات التجاوزات التي حدثت في سنوات الثلاثينات والنزاع العالمي، كانت حاضرة في كل الأذهان. هذه الأحداث المأساوية كانت تظهر كتعبير عن عمق عاطفي غير خاضع للسيطرة. آرثر كوستلر ومعاصروه كانوا شهودا على احتفالات نورمبيرك، حيث كان هيتلر يلهب الحشود، كانوا يرون من جديد الشعب الإيطالي في ميدان لبيازا فينينسيبا يهتف للدوتشي[7]، كانوا يعرفون الحماسات القاتلة التي تطلقها الاشتراكية. السبب في كل ذلك، كما كانوا يشرحون، هو السهولة التي تسيطر بها المشاعر على السلوك البشري. إنه «العيب في الصنع» الذي يشرح تخبطات التاريخ. انطلاقا من هنا، كان القلق الكبير لكوستلر ومعاصروه، هو أن تنبعث المشاعر من جديد وتحدث تعصبات جديدة وحماسات مدمرة جديدة.

7- يقصد هنا موسوليني. (المترجم).

من أجل منع رجوع مثل تلك التجاوزات، قام كوستلر من جهة أخرى بصياغة اقتراح غريب. لقد نصح باللجوء المكثف لمضادات الذهان Neuroleptiques، التي كانت حديثة الاكتشاف من طرف الكيمياء الأحيائية الطبية. يقول في كتابه «يانوس»[8]: «الخلل البيولوجي الوظيفي يتطلب مصححا بيولوجيا». سيكون محبذا، يتابع كلامه، لو أعطي لكل الناس جزيئات مهدئة. في يانوس، يمكننا قراءة صفحات مذهلة حيث يصرح الكاتب أن الحل الوحيد لفوضى المشاعر الجماعية هي تغيير الطبيعة الإنسانية باللجوء المعمم للأدوية النفسية، وهي وصفة كانت ستكون بالتأكيد، أسوأ من الداء...

في نفس الفترة، كان الرأي العام يزداد انشغالا بالحرب الباردة. احتمالية نشوب حرب ذرية بين القوتين العظيمتين كانت تستخدم فيها مفردات مقلقة عند طرح مشكلة المشاعر. كانت هناك ترسانة نووية ضخمة تتراكم، معرضة للخطر بقاء الإنسانية جمعاء على قيد الحياة. سيناريوهات النزاع بين الروسيين والأمريكيين كانت تؤرق النفوس. البشر كان لديهم الوسائل لتفجير عشر أضعاف، خمسين ضعفا من الكرة الأرضية، وهم قليلو السيطرة على أنفسهم! فجأة ظهرت هوة بين وسائل التدمير والهشاشة النفسية للأموسابيانس. كان التساؤل المطروح هو: من يدري ماذا بمقدور هؤلاء الخاضعين لمشاعرهم أن يفعلوا؟ كان التصور الذي يراود الخيال الجماعي هو فرضية أن يقدم رئيس الدولة في حالة فقدانه لأعصابه، على الضغط على زر الحرب النووية.

8- يانوس: الخلاصة. منشورات فينتيج بوكس، ص 102. راجع أيضا كتاب الحصان داخل القاطرة، لنفس الكاتب، ص 313 وما بعدها.

أخيرا، المشاعر كانت تلام بسبب الثورة التنظيمية التي كانت المجتمعات المتقدمة معبأة فيها. كان ينتظر الكثير من التقنوقراطية ومن االهندسة الاجتماعية. الحلم الكبير لسنوات الخمسينيات والستينيات كان هو مجتمع مبرمج، منظم ومعقلن. الأبحاث العملية كانت على أشدها. تقنيات التخطيط، أساليب منع العشوائية وأدوات الإدارة والتسيير كانت تتكاثر، السياسة كانت مدعوة للتلاشي لصالح الإدارة العلمية. التخطيط الاقتصادي كان يجب أن يحكم الحياة الجماعية، والتقنوقراطية أعلنت نهاية الإيديولوجيات. لكن في نفس الوقت كان يتبين لنا أن هذا الحلم يصطدم بغرائز وانفعالات الناس.

«االعامل البشري» كما كان يقال في تلك السنوات، كان يهدد التنظيم المحكم لمجتمع السبرانية. الفكر التقنوقراطي كان يصطدم بالعامل الإنساني، الإنساني جدا للمشاعر، هذا الجزء الملعون، هذا الصوت الذي يقاطع تناغم السمفونية التنظيمية. النفس البشرية بعشوائياتها وشرودها وانفجاراتها ونوباتها وهيجانها وجنونها، شكلت نقطة الضعف في النظام، أحداث ماي 1968 شكلت مثلا صارخا على ذلك.

تلك هي الأفكار السائدة في السنوات التي سبقت ظهور عبادة االمشاعر.

ظهور الأنثروبولوجيا اللاعقلانية

سنة 1973، نشر إدكار مورين كتابه « الجذور المفقودة: الطبيعة الإنسانية»، الذي يمكن اعتباره رصيفا في مستنقع علوم الإنسان. هذا المؤَلف يعطي إشارة الانطلاقة لإعادة تأهيل الأحاسيس،

ويتوج في نفس الوقت كاتبه كأب مؤسس لعبادة المشاعر. فكرة إدكار مورين بسيطة: يجب القطع، كما يقول، مع التصور الضيق للإنسان ومع «الأنثروبولوجيا العقلانية للأموسابيانس». الإنسان لا يمكنه أن يكون «سابيانس» بحق إن لم يكن في نفس الوقت «دمانس»[9]. عوض توجيه أمداح سطحية للعقل، لنعمل من جديد علَى إعطاء مكانة للتقلب العاطفي، للمغالاة في الانفعالات، للجنون، للاعقلانية. التفكير فقد مكانته في الأنثروبولوجيا الجديدة المقترحة من طرف إدكار مورين، ولم يعد يمثل الغاية الأسمى للإنسان، وسقف إنجازه الأعلى المنفصل بكبرياء عن أحاسيسه. التفكير كما يشير مورين، ليس له قيمة إلا إذا كان « مزودا بالقوى الداخلية للإحساس، الأحلام، القلق، الرغبات»[10].

باستثناء جورج بطاي وروجي كايوا، لم يذهب أحد في العصر الحالي بعيدا كما فعل كاتب الجذور المفقودة في إعادة تقويم النشوة، الغضب، العربدة، الغيظ، الكراهية، الإفراط، التأرجح، الاحتفال، الدموع، التشنجات، الافتتان. مورين كان مدعما في مراجعته الأنثروبولوجية بثورة الأفكار التي حدثت في نفس الفترة في العلوم، حيث أنه خلال سنوات السبعينيات، تغير الجو المعرفي في العمق. علوم المادة والحياة أدارت ظهرها للحتمية وظهرت نماذج فكرية جديدة، قائمة على الصدفة وتدخلات الأحداث العرضية، وهكذا اعتبرت الصدفة «منظمة»، وأصبحت العشوائية مرة أخرى ذات قيمة. الخطأ تم الاعتراف به كمُخَصِّب، كما تشهد بذلك النظرية التطورية القائمة على فكرة الطفرة، أي خطأ النسخ في الخبر الوراثي.

9- دمانس: Demens يقصد هنا مجنون. (المترجم)

10- «الجذور المفقودة: الطبيعة البشرية»، مدخل، 1973، ص 126.

تلقن إدكار مورين هذه الثقافة العلمية الجديدة، خلال سنة سبتية قضاها في معهد سالك بكاليفورنيا. فبادر إلى تطبيقها في مجال علم الإنسان، معلنا بذلك الحرب على الأنثروبولوجيا العقلانية. كان حدسه يوحي له أن الإحساس يشكل خطأنا الأكثر تخصيبا. أكيد أنه مصدر تشويش، لكن هذا بالضبط ما يجعله مبدعا. لا شيء عظيم يمكن أن يتحقق بدون مشاعر... لم يكن الاضطراب العاطفي سببا في إعاقة الأموسابيانس، بل على العكس من ذلك فقد كان عاملا «لتطورات خارقة».[11]

أكثر من ذلك، فالمشاعر ليست فقط ورقة رابحة للإنسان، إنها بشكل أعمق، مكون أساسي لهويته وجزء من جوهر طبيعته. إدكار مورين يعبر عن ذهوله من كون الظواهر الشعورية عند الكائنات البشرية، تبلغ شدة قصوى لا يمكن أبدا مقارنتها مع تلك التي نلاحظها في مملكة الحيوان. الإمكانيات الشعورية للإنسان تفوق بكثير تلك التي تمتلكها الكائنات التي دونه. للاقتناع بذلك، يكفي مشاهدة رضيع يضحك ويبكي: حالاته العنيفة المتشنجة، التقلصية، تقطعاته، اهتزازاته، انفجاراته من الكآبة، انفلاتاته من الفرح، ليس لها مثيل. الإنسان الصغير، يكتب مورين، «يعبر عما لم يعبر عنه، بشدة مماثلة، أي طفل من أي كائن حي آخر: الضعف، الضيق الشديد في صراخه، وانشراح لا يصدق في ارتعاشة بهيجة لجميع أعضائه»[12]. قطعا، ليس العقل، وإنما المشاعر التي تشكل خصوصية الإنسان.

11- نفس المصدر ص 126

12– نفس المصدر ص 122

إدكار مورين قام بفتح الطريق، وبعد ذلك تلقت تخميناته العديد من التأكيدات. أولا عبر أعمال أنطونيو دماسيو. الفكرة الرئيسية لدماسيو، وهو أستاذ في علم الأعصاب الأحيائي في جامعة إيووا ومعهد سالك، هي أن قدرتنا على التفكير متجذرة في كياننا الشعوري. يعتبر دماسيو العقل والمشاعر متكاملين وليس متعارضين. ما يعيق عملية الإدراك، ليس هي المشاعر، وإنما، وبشكل متناقض، عدم القدرة على التعبير عنها، كما يظهر ذلك عند الأشخاص المصابين بمرض «العجز عن قراءة المشاعر» (Alexithymie) أو ببعض الإصابات الدماغية.

المشاعر تلعب دورا رئيسيا في صياغة القرارات العقلانية، يلخص كولمان وجهة نظر أنطونيو دماسيو كالتالي: «من الممكن أن يكون عنف الأحاسيس كارثيا على التفكير، لكن تجاهلها يمكنه كذلك أن يكون مفجعا، خصوصا عندما يتعلق الأمر باتخاذ قرارات يتوقف عليها مستقبلنا: أي مهنة نختار؟ هل يجب مغادرة وظيفة مضمونة من أجل أخرى أقل استقرار ولكن أكثر متعة؟ أي رجل أو أي امرأة نعاشر أو نتزوج؟ في أي منطقة نستقر؟ أي شقة نستأجر أو نشتري... العقل وحده لا يمكنه أن يتخذ هذه القرارات، التي تشترط أن نحس الأشياء «داخل الأحشاء»، وأن نستغل حكمة الأحاسيس[14]. إجمالا، محرك العقل يحتاج إلى المشاعر». يقول أنطونيو دماسيو[15]: «القدرة على إبداء وإحساس المشاعر ضرورية

13- فوفنارك، تأملات وحكم، CXXVII

14- دانييل كولمان، الذكاء الشعوري، المصدر المذكور سابقا، ص 86

15 - خطأ ديكارت، المصدر المذكور سابقا، ص:9

للشروع في السلوك العقلاني». للتصرف بطريقة معقولة، يجب الإصغاء للإحساس الذاتي، وليس محاولة التخلص منه. فوفنارك كان قد قال من قبل: «لا أحد يقع في الخطأ أكثر من الذين يعتمدون كليا على التفكير في تصرفاتهم»[16].

يرى علماء الإدراك، أننا بصدد إعادة الاعتبار لدور المشاعر، فقد اكتشفوا أن ما يجعل الإنسان ينافس الحواسيب في مواقف اتخاذ القرار هو، من بين أشياء أخرى، مشاعره؛ هكذا، فإنه خلال جولة شطرنج بين الإنسان والآلة، ينكب الحاسوب على الحساب، بينما خصمه الآدمي يحلل ويحس، ولهذا فإن هذا الأخير هو الذي يفوز. بالمقارنة مع البرامج الأكثر تطورا، يمتلك الكائن البشري ميزة التفاعل بمنطقه، وأيضا «بأحشائه». أمر مهم آخر يتجلى في كون المعلوماتيين يبحثون حاليا عن طريقة تمكنهم من إدخال «مقياس عاطفي» في تصاميم الذكاء الاصطناعي.

النموذج الفكري لأسلافنا كان هو العقل المتحرر من المشاعر، بينما النموذج الفكري الجديد المقترح من طرف علم الأعصاب الأحيائي وعلم الإدراك يشترط على العكس التمازج بين الرأس والقلب. «الكمال الإدراكي» يبدو كحلم خرافي. الذكاء ما هو إلا شيء بسيط يطفو على السطح! المشاعر هي التي توجه الفكر التجريدي والمنطقي الرياضي. نكون بشكل أكثر «سابيانس» كلما كنا «سنتيانس». اسألوا المفكرين، المنظرين، الفلاسفة الذين يبذلون جهدا من أجل «الالتزام بالعقل» سيخبرونكم، إن كانوا صادقين، أن الفكر البارد عقيم وأن العمل العقلي لا يكون مثمرا إلا

16- تأملات وحكم، CXXXI

إذا كان مفعما بالانفعالات العاطفية، الأسس النظرية تكون هندسة فاشلة إذا لم يتم تدعيمها بخفقان الخيال، بالفرح والابتهاج. في القرن التاسع عشر، كان اتباع العقل يحظى بعلامة الشرف. من يدري، لربما في القرن الواحد والعشرين يكون الشرف لمن ترك مشاعره توجهه؟ «الشعورية» من الممكن أنها ستحل محل الوضعية positivisme.

المشاعر، أساس الوعي بالذات

إعادة تأهيل الشاعر ستكتمل لو أننا تمكنا من برهنة أنها تشكل كذلك أصل العملية التي تمكن الكائن البشري من قول «أنا»، بمعنى الحصول على صفة شخص. في هذه الحالة ستتبوأ المشاعر الدرجة الأعلى: سيتم الاعتراف بها ليس فقط كأداة للتمكن من معرفة العالم وتوجيه العقل، وإنما كأساس حقيقي لمعرفة الذات. هذا ما سيعطيها الحق في الادعاء بكونها جوهر إنسانيتنا.

كان هذا هو المشكل الذي تطرق له أنطونيو دماسيو في كتابه «الإحساس بالنفس ذاتها»[17]، حيث تساءل: كيف يصل الكائن البشري إلى الوعي بذاته؟ ما هو أصل الكوجيطو، ما هي العملية التي تجعلنا نقول: «أنا». تقليديا، ترد الفلسفة على هذا السؤال بالقول أن الكوجيطو هو وظيفة سامية للنفس، وأن القدرة على التفكير في الذات نفسها تنبع من الحرية والعقل. لكن دماسيو يعارض هذه الفكرة، ويقول أن الكوجيطو له أصل أكثر تواضعا. بعيدا عن إظهار استقلال روح متكبرة عن الجسد، يبقى الكوجيطو

17 - «الإحساس بالنفس ذاتها: الجسد، المشاعر، الوعي»، دور النشر أوديل جاكوب، 1919.

مندمجا داخل الدائرة البيولوجية. فالوعي بالذات يبدأ ببساطة من الجسد. برهنة دماسيو كلها تقوم على أساس أن الوعي بالذات في شكله الأصلي، المسمى «الوعي-النواة»، هو انعكاس لما يحدث داخل الجسم، أو لكي نستعيد كلمات هذا العالم: الوعي بالذات يتمثل في «التاريخ قبل اللغوي»، الذي بواسطته يحكي الدماغ لنفسه الأحداث التي تقع في بقية الجسد، خصوصا منها الصور الذهنية والمشاعر. كل وعي هو في الأصل وعي بالجسد، إنه «الوعي بالعلاقات الجسدية، بتغيرات الحالات الجسدية في علاقاتها مع الأشياء»، وفي المقام الأول، «المشاعر التي هي المظهر الأساسي لهذه التغيرات»[18]؛ باختصار، الكوجيطو هو أحد «إفرازات» الجسد! يعزز دماسيو برهنته بحجج تشريحية، حيث يلاحظ أن المواقع الدماغية للوعي-النواة وللمشاعر تختلط ببعضها البعض: «المشاعر والوعي-النواة مترابطان بشكل جلي (...). بعض المراكز التي تتحكم في المشاعر وفي الوعي - النواة، توجد في نفس المنطقة»[19].

وهكذا، فإن نظرية الوعي التي أطلقها أنطونيو دماسيو تعطي السيادة للمشاعر. المشاعر هي حاليا معترف بها كأساس للحياة النفسية، وكعماد لإنسانيتنا. الكوجيطو الشعوري هو ليس فقط شكل من الأشكال التي يمكن للحياة الباطنية اتخاذها، أو مجال كغيره من مجالات الحياة الفكرية، إنه أكثر من ذلك، شرط ضروري لكل كوجيطو، أي لكل تفكير للشخص بذاته نفسها. الفعل الذي عن طريقه ينطق الإنسان المتأمل لذاته، الواعي بهويته، الكلمة الحاسمة «أنا»؛ هذا الفعل المؤسس لإنسانيته، هو في جوهره نابع من المشاعر.

18- نفس المصدر ص 37 إلى ص 40.

19- نفس المصدر ص 128.

الفصل السادس

الكاتدرائيات الشعورية

حتى الآن، قمنا بتناول عبادة المشاعر من زاوية الاهتمام بالنفس. فسرناها على أنها تعبير عن النزعة الفردية المعاصرة وآخر تجسيد للنرجسية. لكن، هل هي حقا عبارة عن هذا فقط؟ هل المشاعر تجربة فردية فقط؟ بالطبع لا، إنها تمثل كذلك فرصة للتشارك مع الآخر. إنها تشجع على التلاقي مع أقراننا.

موضوع هذا الفصل هو دراسة ذلك الدور التواصلي والاجتماعي. سنرى كيف أن المشاعر تساهم في «الاهتمام بالآخر»، وليس فقط بالنفس. إنها عامل انفتاح للعلاقات بين الأشخاص بالإضافة إلى الانفتاح الفردي.

تقاسم المشاعر

من الممكن أن تكونوا قد تجولتم في شوارع باريس يوم الجمعة ما بين الساعة الثانية والعشرين والواحدة صباحا؟ في هذه الحالة، فمن المؤكد أنكم حضرتم عرضا مذهلا. يتجمع منذ عدة

أشهر ممارسو الرولر[1] كل أسبوع في ساحة إيطاليا، من أجل سباق لمد ثلاث ساعات عبر شوارع العاصمة. إنها بحق هجرة إنسانية، حشد من عشرين ألف شخص، يتزحلقون في جو طفولي على الطريق وينسابون عبر شرايين المدينة. من وقت لآخر، يطلق الرولرز (هكذا نسميهم) هتافات سعيدة، إنها إشارة ليتمكنوا من التعرف على عشيرتهم. أتباع التزحلق هؤلاء لا يتسابقون. روح المنافسة تترك مكانها لمتعة الحركة بكل حرية وامتلاك الطريق المنزوعة لبضع ساعات من حركة سير السيارات، وبالخصوص التواجد سويا داخل مجتمع بشري مجنون. الرولرز يسعدون بالتجمع والذوبان في قالب يحتويهم، في محيط بشري يغمرهم. هذا المشهد يشكك في صحة الأفكار التي تلقيناها بخصوص المجتمع «الذري» المزعوم لعصرنا، ويجعلنا كذلك نفكر بالظاهرة التي يسميها الفزيائيون «الارتعاش» فعندما نسخن الماء، يبدأ بالارتعاش مباشرة قبل وصوله لنقطة الغليان.

مثل هذه التجمعات تتكاثر في أيامنا الحالية. تارة يتجمع الأفراد أمام شاشات ضخمة موضوعة في أماكن عمومية لمتابعة المنافسات الرياضية مباشرة، تارة أخرى يشاركون في حفل روك أو حفل تكريم. موسيقى، روحانيات، تراث، حنين للماضي، حفلة، كل شيء يصلح لنكون معا. المهم كما يظهر هو تشارك الغبطة الجماعية، تكوين جوقة، الذوبان في الجماعة وتذويب الأنا داخل الكتلة.

تضم هذه التجمعات العاطفية أعدادا مهولة. مليون شخص سارعوا إلى الشانزلزيه وبرج إيفل للاحتفال بالمرور إلى

1- الرولر(Roller): نوع من أنواع التنقل يقوم على التزحلق بواسطة أحذية ذات عجلات. (المترجم)

العام 2000. مليونان من الحجاج جاؤوا إلى روما من أجل الأيام العالمية للشباب في غشت 2000، لتلبية دعوة البابا جون بول الثاني، عشرون مليون فضولي قصدوا في الحادي عشر غشت 1999 المنصة المخصصة لمشاهدة الكسوف الكلي للشمس، حيث حبسوا أنفاسهم عندما حجبت الشمس لبضع دقائق بقرص القمر، وأطلقوا هتافات قوية حينما عادت للظهور.

في الرابع عشر من يوليوز 2000، منديل طويل بعدة كيلومترات تم بسطه في كل فرنسا، على خط الطول الذي يمر من باريس، داخل 337 بلدية، من أجل «نزهة لا تصدق» (هذا هو الاسم الذي أطلق عليها)، فكانت حقا احتفالا شعبيا بهيجا. بشكل ليس أقل إبهارا، كان الحفل الذي أحياه جوني هاليدي بساحة مارس في العشرين من يونيو 2000. خمسة مائة مليون معجب من جميع الأعمار ومن جميع الأماكن كانوا يهتفون لنجمهم، الذي يحتفل بمضي أربعين سنة على بداية مهنته. أحداث كهذه تتحدث عن نفسها، إنها تشهد على أننا بحاجة إلى عيش مشاعر جماعية.

أكثر استعراضية من هذه التظاهرات المعدة مسبقا هي التجمعات التلقائية التي تحدث من أجل حادث غير متوقع. بصفة دورية يهتز الإحساس الجماعي لكارثة، أو فوز رياضي، أو جريمة. هكذا دفع موت الأميرة ديانا وقضية ديترو شريحة عريضة من الناس في حراك عاطفي حقيقي، مما جعلنا نتابع تدفقا جماعيا معبرا عن فرط إحساس الرأي العام. فوز الزرق في كأس العالم لكرة القدم ثم من جديد في بطولة أوربا سنة 2000، أحدث تجمعات ضخمة في قلب المدن. كان مشاهدو التلفاز يتبعون غريزة القطيع ويخرجون من بيوتهم بعد الصافرة النهائية، فيكتسحون الساحات

الكبرى للمدن لفسح المجال لفرحتهم كي تتفجر. كانت فرنسا تعرف هذيانا جماعيا حقيقيا.

أليست هذه التجمعات العاطفية علامة على أنه يوجد في مجتمعنا طاقة جماعية طافية، مستعدة للتحرر مع أي حدث وللتشبث بأي موضوع؟ كل واحدة من المشاعر الرئيسية: الخوف، الإعجاب، الشفقة، الألم، الحماس، الغضب... إلخ، يمكنها في ظرف ساعات أن تجتاح الجسد الاجتماعي كموجة من الصدمة. الحشود المجتمعة بهذه الطريقة كأنها تقول، على غرار ألفريد دو موسي: «مهما يكن الحدث المتسبب، المهم هو الشعور بالنشوة». عند اندلاع تلك الحماسات المفاجئة، وتلك النوبات من الحرارة والحركات غير المتوقعة، يشعر المراقب بالقلق، فيتساءل: ألا تشكل هذه الطاقة الهائلة المخزنة، هذه العاطفة الشاردة المتشردة، تهديدا للسلم الاجتماعي؟ ألا نوشك أن نرى يوما تَنْصَبُّ فيه هذه الشحنة العاطفية على هدف مريب؟ من يضمن أنها لن توقد أهواء هدامة؟ لقد تجلت حتى الآن في أحداث كموت الأميرة ديانا، حفل جوني، الفوز بكأس أوربا 2000، طواف الرولر، ولكن غدا؟ في بعض من التطرفات الجديدة؟ غضب جامح؟ عصر المشاعر من الممكن أن يكون عصرا لكل الأخطار.

المشاعر تنقذ الرابط الاجتماعي

ماهي أسباب هذه الظواهر العاطفية؟ ما الذي يجعل الإحساس الجماعي سريع الاشتعال؟ السبب الأول يكمن في الحاجة لتوطيد الرابط الاجتماعي. فالأشخاص لا يكتفون بعيش انتمائهم للمجموعة على نحو رسمي، قانوني، ولا يقنعون بروابط

اجتماعية مبنية على التبادل والتعاقد، هم بحاجة إلى إحساس الالتحام الاجتماعي داخل ألياف كيانهم، يجب أن تتمكن أرواحهم من الانشراح والنهوض والاتحاد في إطار الانتمائية للجماعة المُشَكَّلَة من أشخاص يشبهونهم. من منا لم يذق الطعم اللذيذ لمتعة التوغل داخل الكتلة والشعور بحمى الحشد والانبهار بطاقته القوية.

عند فوز الزرق في يوليوز2000، صب معلق الماء البارد على الاحتفال الشعبي بتصريحه على أعمدة جريدة لوفيكارو:» الاحتفال لن يعوض أبدا العقد الاجتماعي»[2] ماذا لو كان ضروريا وجودهما معا من أجل لحم المجتمع؟ نحن بحاجة في نفس الوقت للمواطنة وللحماس، لإطار قضائي سياسي ولمشاعر مشتركة. يجب إضافة إحساس الارتباط لمجموعة ذات كثافة عاطفية عالية إلى القيم الحضارية. إنهما العنصران اللذان يحافظان على تماسك المجتمع.

لقد حكت لي جدة عمرها أزيد من خمسة وسبعين سنة أنها كانت تذهب خلال كأس العالم لكرة القدم لسنة 1999، يوميا إلى المحل التجاري بارلي- 2 لمتابعة المباريات التي كانت تبث على الشاشة الكبيرة. الأمر المهم، هو أن تلك السيدة لا تهتم إطلاقا بكرة القدم في الوقت العادي، وفي جميع الأحوال لديها تلفاز لتتبع المباريات بهدوء في البيت. ولكن ابتداء من ثمن النهاية، عندما بدأ التشويق يكهرب الجمهور، شعرت بالحاجة للتفاعل مع جمع المشجعين المكدسين أمام الشاشات العملاقة. الكرة المستديرة لم تكن بالطبع سوى ذريعة، فرصة «للاجتماع على

2- رونو جيرار، جريدة لوفيكارو، 8 /9 يوليوز 2000.

النمط الشعوري»، للانغمار في الابتهاج الجماعي، قالت لي أنها لم تعرف هذا الجو من الفرح، سوى خلال تحرير باريس في غشت 1944.

عالمة النفس كريستين لوسكانف أظهرت أن الدماغ بحاجة لعيش تحولات في نمط العيش وحالات متغيرة للوعي، وذلك بطريقة دورية. فاستعمال مواد كيميائية وتقنيات الترانس[3] وشرب الكحول يُفَسَّرُ، حسبها، بالحاجة الطبيعية، شبه الفيزيولوجية، للتغيير الدوري لنمط عمل الذهن. ألا يصح هذا كذلك بالنسبة للرابط الاجتماعي؟ على غرار النفس الفردية، النفس الجماعية هي بحاجة للحماس من وقت لآخر، لهذيان جماعي، للارتواء بمشاعر عنيفة وللاهتزاز بموجة صادمة. على غرار الدماغ الفردي الذي يطالب بتغيرات في حالات الوعي، كذلك الرابط الاجتماعي يحتاج للنشوة الدورية للالتحام والتلاصق المفرط للفرديات. المجتمعات البدائية كانت تخصص لهذا الغرض طقوسا واحتفالات وحفلات مقدسة. ولكن في مجتمعنا البارد والعقلاني، لا شيء مخصص لإحداث تلك التغيرات في الحالة، لهذا فإنها تحدث بطريقة عشوائية عندما يلتهب الإحساس تلقائيا؛ من تظاهرة الانتماء إلى موسيقى الروك، ومن مسيرة «الفخر» للشواذ جنسيا إلى الماراطون، كل ما يجعل الرابط الاجتماعي يتوهج هو مرغوب فيه.

التحركات العاطفية الحالية يمكن فهمها لو وضعت في سياق أزمة التلاحم الاجتماعي، فهي تقوم بدور إصلاحي في مواجهة انحلال الرابط الاجتماعي، الذي هو راجع بالأساس إلى تلاشي

---

3 - «الوعي المتغير»، دور النشر بايو، 1995.

التكافلات القديمة في العمل والجماعة والقرية والأسرة. المواطنون صاروا لا يتعارفون داخل الدولة التي لم تعد كيانا مجمّعا قادرا على عقد الوحدة. لم يعد هناك مشروع جماعي محرك، ولا معتقدات فكرية ثابتة، ولا دين قادر على حكم الناس، ولا حتى شخصية منتمية لسلالة حاكمة تمثل الوحدة الوطنية. في هذه الظروف، ماذا يبقى لضمان استمرارية الرابط الاجتماعي؟ المشاعر بطبيعة الحال. المشاعر المشتركة هي أداة أساسية لإعادة تشكيل الرابط الاجتماعي ووسيلة فضلى «لبناء وطن». فبفضل التهاب المشاعر الجماعية يمكن إعادة بناء عالم مشترك. وفي هذا الإطار أثر الفوز المزدوج للاعبي كرة القدم الفرنسيين في 1998 و2000 بدون شك أكثر مما أثرت عشرون سنة من سياسة المدينة من أجل دمج شباب الأحياء الهامشية.

الميول الاجتماعي في «ما بعد الحداثة» postmoderne

المشاعر الجماعية الضخمة يكون لها تأثير أكبر كلما حققت توازنا رفيعا بين روح الالتحام والروح الفردية. هذه الموازنة تستجيب كليا للتطلعات المتناقضة للإنسان المعاصر، لاحظوا الأشخاص المسحورين داخل الإعصار الجماعي، إنهم يشاركون في النشوة الجماعية ويسلمون أنفسهم لروح الحشد، ولكنهم حالما ينتهون ماذا يفعلون؟ يرجعون في هدوء إلى بيوتهم، حالما ينتهي تفاعلهم مع الآخرين، يستردون ملكية ذاتهم. إنهم إذن يستمتعون برابط اجتماعي متوقد، دون أن يجعلهم ذلك يخضعون لأي من سلبياته، كيف يمكن مقاومة سحر هذه المشاعر الجماعية التي تولد متعة مزدوجة؟

فرغم ندمه أحيانا على اضمحلال الرابط الاجتماعي، فإن الإنسان المعاصر ليس مستعدا للقيام بتضحيات كبيرة من أجل علاجه، فهو يفضل الحفاظ على الخصوصيات الفردية؛ فلا يمكنه في أي حال من الأحوال القبول بالخضوع مرة أخرى لضغط العائلة الكبيرة التي عاش فيها أسلافنا، يرفض الرجوع للتأطير داخل المؤسسات ويريد التحرر من الحساب لكلام الناس في القرى وفي صالونات البرجوازيين التافهة. الإنسان المعاصر أصبح يفضل الغوص من وقت لآخر داخل حشد في حالة هذيان، ولكنه لا ينوي مع ذلك أن يتنازل عن هيمنته الكلية على مجاله الخاص.

هكذا هي جاذبية المشاعر الجماعية، إنها تكرم في آن واحد حاجة الانتماء إلى القطيع وحاجة الانفرادية، إنها تمتع معاصرينا برابط اجتماعي كثيف، دون الخضوع لضغط المجموعة. فهي تقترح نموذجا مثاليا للتجمع المؤقت، بهندسة متغيرة، مع حرية القبول أو الرفض. نعم لتلاحم الأشخاص ذوي أحاسيس الانتماء الحارة، لا للارتباطات الصارمة والنهائية. هذا اللعب المزدوج على وتر ما هو التحامي، ووتر ما هو فردي، على المشاعر الجماعية والمشاعر الذاتية؛ يعلن عن طبيعة الميولات الاجتماعية في ما بعد الحداثة.

هناك نوعان من الكاتدرائيات، الأولى هي للصلاة، شيد أغلبها في العصور الوسطى من طرف رجال ونساء كانوا يعرفون من خلال التجربة، مدى الضغط الذي يمارسه التلاحم الاجتماعي على الأفراد، في هذه الكاتدرائيات الحجرية، الرابط الاجتماعي كان مُطَمْئِنا ولكنه كان مُلْزِما، كان غنيا ولكنه كان مرعبا.

الكاتدرائيات الأخرى هي افتراضية، مشكلة بالكامل من المشاعر، تبنى في لحظة وتتلاشى بنفس السرعة، مثلما نلغي في

ألعاب الفيديو العملية التي قمنا بها حالما نرجع إلى الخلف. هذه الكاتدرائيات تتفكك بنفس السهولة التي بنيت بها. إنها مماثلة للهولوغرام الذي يختفي ما إن ينقطع التيار الكهربائي.

هذه الكاتدرائيات العاطفية لا تُلزمنا الارتباط بها، نحن ندخلها ونخرج منها حسب رغبتنا، إنها تجسد الحلم برابط اجتماعي خال من الواجبات ومن العقاب، وتمكن من السمو بالفردية مع الحفاظ على كل ما هو فردي. نحن حاليا نريد أن نتواجد فقط في هذه الكاتدرائيات سريعة الزوال.

الرجوع للمشاعر والرجوع للقيم

روما، غشت 2000، مليونان من الشباب القادم من خمسة وعشرين دولة اجتمعوا لتلبية دعوة جون بول الثاني، الأيام العالمية للشباب غمرت المدينة الخالدة في جو الاحتفال. انبعث جدل صغير داخل الصحافة الإيطالية عندما صرح أحد الكتاب أن هذا الحدث ليس له علاقة كبيرة بالدين، يقول مجملا: لا أرى سوى شباب سعيد بالتواجد سويا، نعم هي حفلة ظريفة، ولكن دافعها سام، هذا كل شيء.

يجب أن يكون المرء مصابا بنوع من قصر النظر (الإرادي؟) كي لا يرى البعد الديني للأيام العالمية للشباب، لكن رغم ذلك فإن هذا الجدل لديه أهميته، إنه يفرض علينا البحث عن تفسيرات أخرى غير التفسير الحصري القائم على القدرة على الحشد التي تتمتع بها المشاعر الاجتماعية الضخمة. هذه الأخيرة هي في الواقع لا تلعب فقط دورا في تثبيت التماسك الاجتماعي، فهناك شيء آخر يدخل على الخط؛ المشاعر الكبرى هي أيضا فرصة للأفراد

للتأكيد على ارتباطهم بالقيم الأخلاقية والروحية؟ وراء دورها النفسي السوسيولوجي، لديها كذلك بعد أكسيولوجي[4].

لنعد زيارة هذه الكاتدرائيات العاطفية، يجب طمس الآذان كي لا نسمع نشيد التغني بالقيم، الذي يتماشى مع الحدث العاطفي.

هكذا فإن حادثة جسر ألما صدمت الرأي العام، ليس فقط لأن الأمر يتعلق بموت تراجيدي لإحدى الأميرات حضي بتغطية صحفية كبيرة، ولكن، وخصوصا بسبب الصفات الإنسانية التي عرفت بها الأميرة ديانا لدى الجميع ، لقد وُصفت أميرة بلاد الغال بكل الخصال الحميدة، مما جعلها ترتقي تلقائيا لمرتبة القداسة، فتم تصويرها على أنها قديسة مليئة بالإنسانية والتواضع ، منصتة للضعفاء والمساكين، وفوق هذا، هي زوجة تعيسة تعاني من صحافة لا ترحم ومن مضايقات حكومة وسْتْمنسْتْر. الدموع التي سكبت من أجلها كانت في نفس الوقت تعبيراً عن الحساسية الشعبية المفرطة، وتحية موجهة للفضائل التي كانت تمثلها[5].

حدث آخر يكشف تداخل المشاعر والأخلاق تمثل في خروج الفيلم «تيتانيك» الشغف الذي أثاره هذا الفيلم الذي شوهد في فرنسا من قبل أكثر من عشرة ملايين مشاهد[6]، يفسر أولا بكونه يصور مأساة تدور أحداثها حول قصة حب جميلة بعمق تراجيدي كبير حيث امتزج الحب بالموت، لكن الفيلم يحكي كذلك كفاح

4- نسبة إلى الأكسيولوجيا وهي علم القيم الأخلاقية. (المترجم)

5- راجع حول هذه النقطة التحليلات الدقيقة لفورسين، «اللهفة إلى المشاعر»، المصدر المذكور.

6- في المجموع ، اثنين وعشرين مليون دخول، لكن العديد من المشاهدين شاهدوا الفيلم عدة مرات.

العاشقان ضد الأحكام المسبقة على الطبقات، ويثير استنكار المشاهد عند التفكير بالمعاملة غير العادلة التي لقيتها مختلف الفئات عند الغرق. ختاما، فإن فيلم تيتانيك كرم ضحايا كارثة 1912 بطريقة مليئة بالخشوع، كدليل على ذلك، طلب مخرج الفيلم جيمس كامرون من الحضور عند منحه الجائزة الرسمية، التزام دقيقة صمت تكريما لضحايا الغرق. هذا الموقف الفريد من نوعه في تاريخ حفل الأوسكار، يؤكد على المعنى الأخلاقي لعمل فني يلعب هو كذلك على وتر المشاعر. كما في حالة الأميرة ديانا، امتزج بشدة البعد العاطفي بالارتباط بالقيم، وبتدفق الأحاسيس المثالية.

لنكمل زيارتنا. مسيرة الكرات البيضاء في بلجيكا شكلت شهادة عقيدية أعلن من خلالها شعب كامل، مرعوب من قضية ديترو، احترامه للطفولة. خلال كسوف غشت 1999، كانت الحشود مدفوعة بالرغبة في مشاهدة ظاهرة فلكية بالعين المجردة، ولكن وراء الفضول البسيط، فإن هذا الحدث الاستثنائي منح الفرصة لملايين الأشخاص لإعادة دمج إنسانيتهم رسميا داخل الطبيعة، للاعتراف بخضوعهم لقوى الكون وللإحساس بنوع من الشكر المزوج بالتواضع تجاه كوكب الشمس الذي ندين له بالحفاظ على الحياة على كوكب الأرض. هنا كذلك رَوَّجت المشاعر الجماعية لعدد من القيم.

بالتالي فإن رؤيتنا ستكون اختزالية إذا ما اعتبرنا الكاتدرائيات العاطفية فقط كوسيلة لإصلاح الرابط الاجتماعي، فعلاوة على هذا الدور السوسيولوجي، فإنها تعبر عن الرغبة في ترسيخ تعلقنا بالقيم وفي تعزيز ارتباطنا بالأخلاق. مهما كانت عابرة، فإن التجمعات العاطفية تُوَجِّه نحو طريق التعاطف، الصفاء، الشرف،

الإخلاص، الشفقة، العدل. أليس هذا ما كان يقوله ديكارت في كتابه «عواطف الروح»؟[7] حيث نقرأ: «فائدة جميع العواطف لا تتمثل سوى في تقويتها وإبقائها داخل الروح على الأفكار التي من المفيد حفظها، والتي من الممكن أن نمحى بسهولة دون ذلك».

هل هي نهاية طابو؟

لا شيء يظهر هذا الدور المحافظ على القيم أفضل من نهاية كأس أوربا لكرة القدم سنة 2000، حيث أثار فوز فرنسا فرحة جماعية كان لها أثر سوسيولوجي وأخلاقي في نفس الوقت. سوسيولوجي، لكونها ساهمت في تقوية الرابط الاجتماعي، أخلاقي لأنها أطلقت حركة قوية للعودة إلى القيم. كدليل على ذلك، التعليقات المنشورة في الصحافة خلال الأيام التالية، التي كانت تعبر بلغة مزدوجة من الفرح والوعظ. الفوز الرياضي كان فرصة لتناول موضوع مهمل في الأيام العادية: التربية الأخلاقية والمدنية للشعب الفرنسي. فشهدنا في الصحافة والرأي العام رجوعا لفضائل كنا نظن أنه تم نسيانها منذ أمد بعيد. الصحفيون صاحوا في اليوم الموالي لفوز 2 يوليوز 2000: «شكرا لفريق الزرق». شكرا للمشاعر التي جعلتمونا نعيشها، وخصوصا شكرا للدروس التي أعطيتموها لنا، وهكذا لم نسمع شيئا آخر غير المديح لهذا الفريق المتضامن، الشجاع، المثابر، الذي لا يستسلم أبدا والذي يتفاءل دائما! لم تكن هناك كلمات بالقوة اللازمة أو عبارات تمجيدية كفاية للإشادة بالعزم والشجاعة والتواضع والبساطة والقوة المعنوية لأبطالنا. هدف التعادل المسجل من طرف سيلفان

7- «عواطف الروح» فقرة 74، في ديكارت، كتب ورسالات، مكتبة بلياد، ص 730.

ويلطور دقيقتان قبل نهاية الشوط الثاني اعتبر مكافأة على صلابتنا المميزة، وكان البعض يضيف قائلا: يا له من نموذج للوطنية، يا له من مثال رائع للاندماج! هذا الفريق الفائز هو فرنسا مصغرة، كريمة، مختلطة الأجناس، مساوية في الحقوق. لقد لقننا درسا في أهمية الجهد، ونقل إلينا «ثقافة الفوز».

تصوروا للحظة أن مسؤولا سياسيا يخاطب المواطنين بهذه العبارات: «أبناء بلدي الأعزاء، علينا إصلاح روح الجهد والتضحية والاستقامة والإخلاص، فبهذه الفضائل فقط سننقذ بلدنا»، المسكين سينعت في الحال كممثل للتيار الأخلاقي. حاولوا التكلم في أوساط التربية الوطنية عن المثابرة والانضباط والكفاءة. طالبوا بأن يتحمل كل واحد مسؤوليته الفردية. قولوا أن حالات الفشل تعزى أحيانا إلى كسل التلاميذ الذين يجب عليهم الرجوع إلى البيت وحفظ الدروس، عوض التسكع في الطرقات. اطلبوا من التلاميذ الإعداديين والثانويين أن يقلدوا التلاميذ المميزين بينهم، أشيدوا بمحاسن النخبوية، انطقوا كلمات «الامتياز الدراسي»؛ ربما أنكم ستصدمون! فمن الممكن أن يتم منعكم من المطالبة بهذه الأخلاقيات الصارمة، لكن فوزا واحدا فقط في كرة القدم كان كافيا لإعطائكم الحق في ذلك. الكلمات التي تخنقنا في الوقت العادي كالعظمة والتألق والشجاعة والجهد والتنافس، أصبحنا قادرين على تلفظها في اليوم الموالي لفوز يوليوز 2000. إذن فبالتأكيد شكرا للزرق! ولتحيا المشاعر، إنها فعلا سفيرات للفضيلة!

الجزء الثاني

المشاعر المُحَرَّفَة

الفصل السابع

شره الأحاسيس القوية

في الفصول السابقة طرحنا العديد من المؤشرات التي تدل على أن معاصرينا لديهم ميول نحو الأحاسيس القوية. لقد لاحظنا في العديد من المرات أن الأشخاص والجماعات كانوا يحبون المبالغة في الحياة الشعورية لأقصى ما يمكن، حان الوقت لإجراء دراسة منهجية لهذه المؤشرات، وللتساؤل عن تقهقر الإحساس. هل لازلنا نقوم بتوظيف المشاعر توظيفا صحيحا؟

حب الإفراط

لغة الحياة اليومية، التي هي مرآة حقيقية للأخلاق، تظهر تفضيلا للمشاعر القوية على حساب المشاعر الهادئة. كانت هناك حقب في التاريخ تقدر التعبير المجازي الذي يغرس الصور الدقيقة والقيمة، أما حقبتنا فهي من النوع الذي يميل إلى المبالغة. مفردات الاستهلاك والترفيه والأخبار والإشهار تثير توترا عاطفيا مفرطا، ويظهر هذا في عبارات تترد على الدوام: «شحنات عاطفية»، «ارتعاشات مضمونة»، «سيالات من الأدرينالين»، «إنه الهذيان». لقد صرنا نتعجب لأتفه الأسباب ونميل إلى كل ما هو «مجنون».

معاني الانفلات والمتعة حاضرة على الدوام. فمثلا لمخاطبة محبي الأماكن الخضراء الاصطناعية، وعلى غرار مجلة نوفا، سنستخدم عبارة: «متفجر بالعشب»[1] الكلمات التي نستعملها تخدر حياتنا العاطفية.

كل شيء أصبح يتخذ شكل «شحنة»، البرامج الإذاعية متقطعة «بشحنات من الأخبار»، المدمنون تنقصهم شحنات، وإيقاظ الرغبة يحدث أيضا على شكل شحنة (نشحن من أجل استهلاك شيء ما أو من أجل شريك جنسي). كل شيء يطبعه التشنج. الأحياء والأشياء في «حالة هيجان»، هي عبارة متداولة كما تشهد بذلك عناوين هذه المقالات والعروض المختارة عشوائيا: «أوروبا في حالة هيجان»، «سويسرا في حالة هيجان» «صناعة النسيج في حالة هيجان»، «نبيذ بوردو في حالة هيجان»، «الصحة في حالة هيجان»، «الملائكة في حالة هيجان»، «اللغة الفرنسية في حالة هيجان». الجميع وكل شيء «يتفجر». قدمت مجلة أسبوعية كبيرة مؤخرا ملفا حول رواية «البحث عن الزمن المفقود» للكاتب الفرنسي مارسيل بروست تحت هذا العنوان المثير: «بروست يتفجر».

استعمال مثل هذه التعابير يدل بوضوح على التوجه العام لإحساسنا، إننا نميل إلى ترك المشاعر التأملية. الأحاسيس المبعثرة أصبحت تتفوق على التأمل. سم الإفراط ينخر داخلنا. الحياة العاطفية بنفس الطريقة التي تطبق بها مبدأ الحرية «حرروا مشاعركم»، تطبق كذلك مبدأ الشدة الذي يقوم على معايير قصوى. «دائما المزيد من الإثارة والاهتزاز والغضب» هذا هو شعار حقبتنا.

1- مارس 2000، ص 16

عبادة المشاعر مهددة بتجاوزاتها. كيف يمكن تحقيق الاستقرار النفسي للأشخاص الذين يبحثون دون توقف عن المواقف المولدة للأحاسيس القوية؟ سلوكهم هذا، هل هو عادي أم مرضي؟ ما هي قيمة المشاعر التي نحدثها اصطناعيا والتي نتلاعب بها ونستهلكها بشراهة؟ لقد قمنا سابقا بتشبيه الحياة الشعورية المعاصرة بتلك التي تناولها روسو في كتاب أحلام اليقظة، ولكن في الواقع، الإحساس الحماسي الحالي هو قليل الشبه بحلم اليقظة العاطفي الناعم على ضفة الماء الذي كان يسحر كاتب النزهة الخامسة. فبخلاف جون جاك، الإنسان الحالي يحتاج إلى قصف ذاتيته بمؤثرات، منشطات، حالات متغيرة للوعي، سياقة خطرة، سرعة، رياضة بهلوانية، ألعاب فيديو مهيجة، عروض مبهرة، أنشطة صاخبة، مغامرات مجنونة، عنف، ترانس. الإحساس بالذات ذو الطابع العشوائي والمختل، يبحث عن الضغط ليتقوى. لهذا فإن الشخص يطمئن على هويته حين تهزه الارتجاجات وتدهشه الانطباعات غير المسبقة وتذهله النشاطات الهستيرية. لكن هذا لا يمنع من كونه يرغب في نفس الوقت في البقاء «وديعا». هذا الانفصام هو ما يعبر عنه العنوان المتناقض الأكثر جرأة في حقبتنا لأغنية مجموعة الروك ريتاميتسوكو: «الهيجان البارد».

هكذا إذن نلمس تناقضات صحوة الإحساس التي تحدث في أيامنا هذه. في نهاية المطاف، هل نحن حقيقة بصدد العودة إلى طبيعتنا ككائنات حساسة، أم نحن فقط مجرد هستيريين خاضعين لأحاسيسهم؟ أرسطو كان يقول: «العيب يكمن في الإفراط والفضيلة تكمن في الاعتدال». هناك إشهار لمصمم الأزياء الإسباني باكورابان يقلب حكمة الفيلسوف القديم: «لا توجد حياة بدون إفراط»، وهو شعار يلخص مدى انحراف حياتنا العاطفية.

شره الأحاسيس القوية يؤدي ليس فقط إلى تردي الإحساس الذاتي، ولكن أيضا إلى إتلاف العلاقات بين الأشخاص. المشاعر الحقيقية تفرض في الواقع إشراك الآخر. ولكن ما هو مصيرها عندما تختزل في أحاسيس حادة واصطناعية؟ هل بإمكانها تأدية دورها التواصلي؟ هل هي قادرة على أن تشكل خط وصل بين الكائنات؟ ألا يؤدي إدمان الأحاسيس القوية بصفة نهائية إلى الانغلاق داخل العزلة؟

الشعور الحقيقي، الصافي، الغني، يعرف بالخاصة التالية: حتى لو كنا وحيدين في اللحظة التي نحس فيها به، فإننا نرغب بشدة في تقاسمه. الآخر موجود افتراضيا في التجربة العاطفية التي نستمتع بها. عندما يتأثر كائن حساس بمنظر جميل أو لوحة أو موسيقى أو عرض فإنه يكون مُؤَرَّقا بفكرة حزينة: إنه يأسف لكون الذين يحبهم ليسوا برفقته ليندمجوا معه داخل النشوة. في رواية «التربية العاطفية» لفلوبير، يخفي فريديريك شغفه بالسيدة أرنو بعيدة المنال. لكنه يعيش كل مشاعره في حوار داخلي لامنتهي مع السيدة المحبوبة. لا يوجد انفعال في حياته العاطفية إلا وله معنا مرتبط بها.

الإحساس القوي على العكس من ذلك، هو شيء نحتفظ به لأنفسنا، إنه غير صالح للبوح. «الباحث عن الأحاسيس القوية» هو أساسا نرجسي، لا يحتاج إلى الآخر لتحقيق حلمه بحياة عالية التوتر. تماسه مع الخطر، الدوار، الفظاعة، الجنون، المخدرات، الفضاءات الشاسعة، الإفراط، العنف، يدخل في إطار الإشباع العاطفي الذاتي. المدمنون بإمكانهم التجمع لاستهلاك المخدرات،

لكن ذلك لا يفك عزلتهم. خلال حفلات الريف «Raves»، يدخل المشاركون في حالة من الترانس، مهيجون بصخب الموسيقى والأضواء والمنشطات، ولكن لا أحد يتحدث مع الآخر. هواة التزحلق والحركات البهلوانية والتزحلق على الأمواج، هم كذلك ليس لديهم شيء معين يمكنهم تبادله، فالبعض منهم يلجأ أصلا إلى هذه الأنشطة بسبب الإحساس بالعجز عن التفاعل مع الآخر. مغامرو الأخطار مهتمون حصريا بإنجازاتهم، وكل انفعالاتهم مركزة على أهدافهم الخطرة والمنعزلة. ملحمتهم هي في النهاية قضية بين ذاتهم وأناهم المثالي، حوار داخلي حيث الآخرون مستبعدون تماما؛ بعد مدة، سيحكون لنا مغامراتهم في كتب وبرامج تلفزية وإذاعية، ولكن في النهاية، لن يتقاسم الجمهور معهم سوى مشاعر باردة. جوهر تجربتهم هو شخصي بالكامل.

هناك ملاحظة مهمة في هذا الصدد، فبمجرد عودتهم من مغامراتهم الشعورية، الناضجة بمقاربة الموت ومواجهة حدود الإمكانيات البشرية، الكثير من هؤلاء المغامرون يستعيدون توازنهم النفسي ويعلنون: «الآن أريد أن أهتم بالآخرين والقيام بالعمل التطوعي وإنجاب الأطفال». كل شيء يحدث بعد ذلك كما لو أنهم استفاقوا من حلمهم الأناني. فهذا متسلق للجبال اتجه نحو الاهتمام بالأطفال بعد صعوده فوق جبل إفريست، وآخر قام بعبور فردي للمحيط الأطلنتي فتفرغ بعد ذلك للعمل الإنساني. هذا الانفتاح على الآخر في نهاية المطاف يثبت أن بحثهم عن الأحاسيس لم يبعدهم سوى مؤقتا عن الآخر.

بصفة عامة فإن تدهور العلاقات الإنسانية وتلاشي الشراكة العاطفية، هما أمران مرتبطان ببعضهما. فالأمر الأول هو الإشارة

الأكثر وضوحا على الثاني. فلنأخذ مثالا لرجل وامرأة تربطهما علاقة عاطفية. في البداية، تتميز علاقة حبهما بتواصل مكثف، فهما يضحكان سويا ويتبادلان الحنان ويضحكان عند اجتماعهما ويتقاسمان اندفاعهما الحماسي وأحاسيسهما، يقوم كل واحد منهما بمفاجئة الآخر ويعجبان بنفس الشيء. السر في سعادتهما يكمن في القدرة على التواصل على المستوى العاطفي والسير بنفس الوثيرة العاطفية. لكن الممكن أن يحين الوقت الذي يسقط فيه الاندفاع الأولي، ليستقر الروتين واللامبالاة داخل علاقتهما. في الفترة التي تسبق الانفصال، من الممكن أن تتلخص علاقتهما ببساطة في تبادل العلاقات الجنسية، وفي هذه الحالة لن يكون الشريك هو ذلك الشخص الذي نستمتع معه بتقاسم المشاعر، سيصبح مجرد أداة للتسلية الجنسية ومصدرا تافها للأحاسيس، ستفقد إذن العلاقة قيمتها. المختصون في الظواهر النقدية يقولون أنه عندما يجري التعامل في اقتصاد ما بعملتين، فإن «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة»، هذا ما ينطبق على تلك الحالة: المشاعر السيئة طردت المشاعر الجيدة.

خلاصة، لقد أقدمنا على اكتشاف المعيارين اللذين يمكنان من التمييز بين المشاعر الغنية والمشاعر الفقيرة، المشاعر تضعف من جهة عندما تنحصر في الانفعال، ومن جهة أخرى عندما تعيق التواصل مع الآخر. هذا والحال هو أن الخطر الذي يهدد الإحساس حاليا هو بالضبط الانحراف نحو مشاعر هي في آن واحد زائدة التوتر وغير متصلة بالآخر، سطحية وذاتية الاستقطاب.

يجب الآن تحليل حالة التدهور العاطفي الناتجة بطريقة دقيقة. الحياة الشعورية للإنسان المعاصر شبيهة بمريض خاضع لحقن دائم

الأول هو التهييج الحواسي الزائد، حاستنا السمعية معرضة باستمرار للمنبهات. هل لاحظتم كم هو صعب داخل المدينة الحديثة إيجاد أماكن هادئة؟ كل هذا يحصل كما لو كان المجتمع يأمن «خدمة دنيا من الإحساس». الساحات العمومية هي بالكامل مجهزة بالصوت.

لا أتحدث عن صخب السير، ولا عن الآلات الميكانيكية التي هي ضرورية لأية حياة حضرية نشيطة؛ ولكن عن الصوت المبرمج، عن الحرص على ملء المكان بموسيقى التنشيط، «الموزاك» (Muzzak). الموزاك هي عملية تحضير لحواسنا، إخضاع لساكنة بأكملها لإيقاعات، فقيرة في الغالب، تقتحم الحياة الباطنية. بمجرد دخولكم لساحة كبيرة فإن الموزاك تهاجمكم في الحال. توقفوا للاستراحة في مقهى أو مطعم أو محل للوجبات السريعة، هناك ستحرمكم نفس الرنات هدوءكم. تظنون أنكم ستفلتون من الصخب بلجوئكم للمترو، هناك من المحتمل أن تستقبلكم آلة إيقاع، هذا إن لم يكن هناك نُصُب موسيقية قامت الوكالة المستقلة للنقل في باريس (RATP) بإقامتها على الأرصفة لتكسير رتابة الأسفار في محاولة لجلب الزبائن. كل شيء تم إعداده على أساس أن تكون الأنغام مرافقة لنا. إضافة إلى ذلك، هي موسيقى صلبة، مهيجة وعنيفة، فالنغمات هي عبارة عن صياح، مستوى الديسيبلات المنبعثة من الأبواق يرتفع شيئا فشيئا.

النبضان الذي يشكل في الموسيقى الكلاسيكية والموسيقى الشعبية التصميم الإيقاعي الذي ترتكز عليه الألحان المعبرة عن الأحاسيس، هذا النبضان يوجد حاليا في قلب التصميم الصوتي، في شكل صخب بدائي لا يحيي أحاسيسا وإنما مشاعرا بدائية. على سبيل المثال، هذه هي الكلمات التي نوهت بها مجلة نوفا في مارس 2000 صدور أحد الأقراص (CD): «موسيقى تيكنو(Techno) شديدة، حادة وهائجة، مزدوجة بشكل فظيع، شديدة الفعالية فوق منصة الرقص». الأشخاص يحملون هذه النغمات أينما ذهبوا بفضل جهاز راديو متنقل. في الأماكن العمومية وفي المترو نرى البعض منهم بسماعات معلقة في آذانهم، يهزون الرؤوس بتشنج على إيقاع تلك الموسيقى. هؤلاء الشباب المحبوسون داخل فقاعة صوتية هم غائبون عن العالم.

حاسة البصر معرضة هي كذلك إلى التهييج الزائد. الفضاء الإلكتروني والافتراضي يشكل منبعا غنيا لعرض صور غير متوقعة، مخيفة، مبهرة ومخدرة. اختراعات السينما، المستقبلات الهوائية، التركيب التصويري، التصوير ثلاثي الأبعاد، الكراسي المتحركة، كلها مضخمات للأحاسيس. وكي لا نفقد شيئا من العرض المولد للمشاعر، نثبت كاميرا على صدر بطل في التزلج على الثلج عند نزوله من الجبل، أو على متن قارب شراعي وسط الأمواج أو على سيارة من الفئة الأولى تسير بسرعة 300 كيلومتر في الساعة. لم يسبق للإنسان أن كان معرضا في أي حقبة من التاريخ لمثل هذه الكمية من المهيجات البصرية.

في مقدمة مسرحية هنري الخامس لشكسبير، تتوجه الفرقة المسرحية إلى المشاهدين بطلب استخدام خيالهم. وكما أعلنت

لهم، فإن خشبة المسرح التي تجري فوقها أحداث المسرحية ستمثل على التوالي قصرا ملكيا في انجلترا، المانش، جيشا كبيرا، ثم ساحة حرب أزينكور. كان أعضاء الفرقة يقولون: «أصلحوا عيوب المشهد بتخيلاتكم الذاتية». كون تصميم المسرح بدائيا، دفع إلى الاستعانة بالصور الداخلية.

في العروض المعاصرة، الديكور مدهش بحيث يصبح عمل الخيال زائدا. لماذا إذن صياغة صور ذهنية، ما دام كل شيء متوفر داخل كم هائل من المؤثرات الخاصة وتراقص مذهل للصور المركبة والأصوات الإلكترونية.

نموذج الشامان

الشامانية هي المادية المخدرة الثانية التي نحقنها لحياتنا العاطفية. بالنسبة لفئة من الشباب، يشكل الترانس نمطا حياتيا حقيقيا. القدوة لم تعد متمثلة في الحكيم أو البطل أو القديس، ولكن في الشامان الذي هو نموذج لحياة عاطفية ومنطلقة.

مساء سبت عادي. مائة، ثلاثمائة، ألف شاب مجتمعون في قاعة، يتناولون حبوبا منشطة، ثم يرقصون، يلوحون ويصيحون. الصوت مشغل في شدته القصوى، الأجواء مهيأة بأضواء لايزر تتحرك على وثيرة الإيقاعات. تحت وطأة المخدرات والموسيقى، يحس هؤلاء الشباب بقوة لامتناهية تمكنهم من الرقص لليلة كاملة. هذه التجمعات تسمى الريفز(Raves). يمكننا كذلك تسميتها ترنسات شامانية.

من هو الشامان؟ إنه الكاهن الساحر عند المجتمعات البدائية الذي يستعمل في الاحتفالات المقدسة الرقص والطبل والمخدرات مع وجود المجموعة القبلية للدخول في حالة من الوعي المتغير. التوازي مع حياتنا الشعورية ذات التهييج المفرط مثير للانتباه. الشامانيون يتناولون المهلوسات التي تولد لديهم تجارب بصرية قوية. أليس لدينا نحن كذلك مخدراتنا؟ وحتى إن لم تتوفر لدينا، فإننا نحصل على مثل ذلك التصوير الهلوسي بتصاميم متطورة وسينوغرافيا[2](scénographie) مخدرة، ووفرة في حزمات الليزر التي تدور وتومض.

الشامان يتمتع بقدرات غير عادية، لاسيما السفر النجمي والتواصل مع الأرواح. ألا ينطبق هذا كذلك على المدمن المحمول في «سفره»؟ هناك شبه آخر: لا يمكننا بتاتا أن نعرف مسبقا ما يمكن أن يحدث خلال الترانس الشماني. كذلك المفاجآت التي تحدث في العديد من حفلات الروك تكون هي الجائزة الكبرى. ختاما، الشامان هو معالج و«رجل طب». حماية وشفاء أقرانه هو هدفه من الطريقة الشامانية. هنا كذلك، التشابه مع عاداتنا هو ملفت للنظر. فشباب اليوم المأخوذون بحالة من الترانس، يحسون بالميول لدعم بعضهم البعض، وهو شيء يستحق كل الاحترام. لديهم الرغبة في حياة هائجة ومتسامحة في نفس الوقت. على غرار الشامانيين المعالجين، هم يعشقون حالات الوعي المتغير والأخوة. يحبون الجنون ويعلنون في نفس الوقت عن استعدادهم للقيام بمهمات الدعم.

2- سينوغرافيا: scénographie فن تصميم وتنفيذ عناصر مشهدية أو ديكور، للسينما والتلفزيون والمسرح. (المترجم)

واحدة من أهم حقائق عصرنا تتجلى في الجمع بين ثقافة الترانس وأخلاق التطوع الخيري. أصبحنا نريد الاستمتاع بالروك، التكنو (La techno)، التزحلق، المخدرات، الكحول؛ وفي نفس الوقت، تملؤنا حسن النية الروسووية (نسبة إلى جون جاك روسو)، واللهفة للمشاركة في العمل الإنساني. في هذا السياق نتذكر الحدث البارز «وودستوك»[3] الذي شكل في نفس الوقت حفلا للحواس «في كامل هيجانها»، وتكريما للسلام والحب.

اسألوا المراهقين عن الشكل الذي يتصورونه لحياتهم المستقبلية. من اللافت للانتباه أن الكثير منهم يتصورونه محصورا بين أنشطة الترانس والأنشطة الخيرية. يحلمون بحياة مقسمة بين البحث عن الأحاسيس القوية والعمل الإنساني، اللهو والتطوع الخيري. أحدهم عبر لنا عن رغبته في أن يكون مدربا لركوب الأمواج لنصف الوقت، ثم القيام بالرعاية التلطيفية soins palliatifs في باقي الأسبوع. وهناك آخر يريد تقديم حفلات لموسيقى الروك والعمل في الدعم المدرسي. مشاريع الحياة المزدوجة هاته، هي النسخة المعاصرة للشامانية.

استغلال الجغرافيا

الإنسان المعاصر يحقن حياته الشعورية بمادة مخدرة ثالثة، هي «استغلال الجغرافيا». نقصد بهذه العبارة حالة طواف العالم بهدف استخراج أقصى ما يمكن من الأحاسيس. هايدغر كان يحلم على غرار الشاعر هولدرلن من قبله، برجل «يسكن العالم كشاعر».

3- وودستوك: مهرجان موسيقي أقيم سنة 1969 بالقرب من مدينة وودستوك بالولايات المتحدة الأمريكية. (المترجم).

أما طريقتنا لتعمير العالم فهي مختلفة، إننا نتصرف كباحثين عن المشاعر لا يشبعون. مواقفنا لا يطبعها التأمل إنما الافتراس. نحن مستهلكون متربصون بتجارب مثيرة، غير مألوفة وضخمة.

وهكذا فإن بعض الجولات السياحية في دول العالم الثالث تتضمن بعض المراحل داخل أماكن شديدة الفقر، أماكن حيث تتجمع الأوساخ والقاذورات، أو مزبلة حيث يبحث أطفال جياع عن شيء يبقيهم على قيد الحياة. في ريو دي جانيرو، هناك خرجات مقررة إلى أحياء «الفافيلا» (Les Favelas) الفقيرة من طرف منظمي الجولات السياحية. في القاهرة، يقترح هؤلاء المنظمون السياحيون زيارة المقبرة القديمة حيث ينام الأطفال داخل القبور. «يا له من مشهد صادم»، سيقول الزبناء وهم مفزوعون ومستمتعون في آن واحد. أما السياحة الجنسية في آسيا وأمريكا اللاتينية فماذا يمكننا القول عنها؟

«أبطال الحياة الهائجة» يقومون هم كذلك بهذا الاستغلال الجغرافي، مغامرو القطبين، الملاحون الوحيدون، راكبو الأمواج، متسلقو الجبال، جميعهم يذهبون للقاء أحاسيسهم الخاصة أكثر من لقاء العالم. ليس مهما بالنسبة لهم زيارة الكوكب، ولكن استغلاله على نحو يهز وترهم العاطفي. العدة التي يتم استعمالها تسهل عملية الاستغلال الجغرافي. هناك من يعبر الجليد على متن زلاجات مدفوعة بشراع أو على متن مركبة جليد مجرورة بالكلاب، وهناك من يعبر الأطلنتيك بقارب عادي ذو مجاذيف، أو يطير فوق الكتل الجبلية بأجنحة دلتا، وهناك أيضا حتى من يقوم بدورة حول الأرض بمنطاد. وهم في حالة إجهاد وتركيز على الآلات، وافتتان بالإنجاز الذي هم بصدد تحقيقه، يتزحلقون فوق العالم، ولكن هل ينظرون إليه؟

هل الطبيعة هي ما يهم هؤلاء المغامرين أم التأثير الذي تحدثه فيهم؟ في الحقيقة، لا تكلمهم أسفارهم عن العالم ولكن عنهم هم أنفسهم. الفضول الجغرافي يترك مكانه للجغرافيا الذاتية والشعورية، مما يؤدي إلى حالة من اللامبالاة تجاه العالم، والتي من الممكن أن تكون أكثر مأساوية من «تسليعه» أو تقييمه بالمال.

العالم لا يمثل عند مغامرات الخطر سوى منجم لأحاسيس جاهزة للاستهلاك، خزان لعروض مثيرة للمشاعر القوية. استغلال الجغرافيا يحول الطبيعة إلى منبه ضخم يأمره مغامرو الخطر: «اجعلني أهتز» كما قال فاوست[4] متحدثا إلى مفيستو[5]. هذا الاختزال في منبهات والاستغلال لتوليد الأحاسيس هو تجسيد لما كان هايدغر يشجبه تحت اسم «الاقتحام من طرف التقنية».

الميول لاستغلال العالم يشتد عند الاحتكاك بالموت. كما نعلم، فإن مغامرو الخطر يتعرضون لتهديدات كبيرة، وأدنى خطإ قد يكلفهم حياتهم. وهكذا فإن الأحاسيس التي يبدونها عند الاتصال بالمحيطات، الثلوج الخالدة، القطبين، العلو المرتفع، السيول الجارفة؛ تتوقد بمجرد تماسها مع الموت. المسار الجغرافي الذي يسلكونه ما هو إلا ذريعة لتذوق الشراب المنشط للقوة والهشاشة. القوة تتمثل في الإحساس الذي يحظى به هؤلاء الأبطال عند التحامهم البهيج مع القوى الهائلة للطبيعة. أما الهشاشة فتتمثل في إحساسهم بضآلة وجودهم داخل ذلك الامتداد الشاسع.

4- بطل حكاية شعبية ألمانية. (المترجم)

5- الشيطان. (المترجم)

وهكذا فبمرورهم بكلتا التجربتين، يكتشف المغامرون حدودهم الخاصة، فينتج عن ذلك تهييج لرغبتهم في الوجود. التحليل النفسي لدوافعهم يظهر أن هؤلاء المغامرين خرجوا في غالب الأحيان، لأنهم كانوا بحاجة لمواجهة مع الموت تمكنهم من الوعي بصفة نهائية بمحدوديتهم. كان من الضروري بالنسبة لهم معرفة حدودهم والإفلات من استبداد الفكرة القائلة أن «كل شيء ممكن»، كان يلزمهم القضاء على حلم القوة الخارقة التي تؤرق الروح المعاصرة؛ فيقولون لأنفسهم في آخر الإنجاز: «في النهاية، لقد وصلت إلى الحد الذي تتوقف عنده قدرتي، الآن يمكن لهويتي المتحررة من هاجس اللامحدودية الخروج من هامش الغموض». يمكنهم من الآن فصاعدا إيقاف سباقهم المجنون: «الآن، أصبحت أعرف من أنا، يمكنني العيش». الإحساس بالموت أيقظ إحساسهم بالحياة، الأخطار التي تعرضوا لها أعادت لهم الرغبة في الحياة. طبعا، كل هذا هو جدير بالاحترام، ولكن يظهر جليا أن مغامراتهم هي في الحقيقة نرجسية. هؤلاء المستكشفون لم يكتشفوا في نهاية المطاف سوى الأنا الخاص بهم.

الإثارة المنحرفة

نصل إلى المادة المخدرة الأكثر ضررا بإحساسنا: إنها الإثارة المنحرفة. لفهم طريقة عملها، يجب إلقاء نظرة على علم الجريمة. فالمجرم المنحرف يحاول أن يثبت قدرته اللامحدودة بالاغتصاب والقتل، لكن قبل إتمام فعلته، هناك متعة تعني له الكثير. إنها الشبقية المتولدة عن الصدمة الشعورية التي تبديها الضحية عند فهمها أنه سيتم التضحية بها. في هذه اللحظة يحس المجرم بمتعة كبيرة حين يقرأ في عيونها تعبير المفاجأة المرعبة.

لقول بأن القتلة بالتسلسل يعاملون ضحاياهم كأدوا[illegible] تحليل نفساني غير دقيق. إنهم على العكس من ذلك، بحاجة إلى الاستمتاع بالإنسانية الخفاقة والهشة لضحاياهم. يجدونه لذيذا العرس الذي تقدمه تلك الكائنات المرتعشة كطيور خائفة. المنحرف يجني متعة لامتناهية من الغنيمة التي ينزعها من إحساس الغير. بإخضاعه للقلب والجسم معا، فإنه يجبر الآخر على الإحساس بما يريده هو. تجدر الإشارة هنا أنه لهذا السبب تكفي أحيانا ردة فعل هادئة ولا مبالية لزعزعته.

منذ خمسة عشر عاما، أصبح مجرم آكل للحوم البشر حديث الصحافة الألمانية. كان يستدرج ضحاياه إلى البيت ويقتلهم قبل أكلهم. تمكن شاب من الإفلات منه بمعجزة، فحكى كيف دارت الأحداث. خلال المحادثة، ألقى المختل بغتة برأسه فوق صدر الشب وهمس بلطف: «أشعر بقلبك يخفق»، مضيفا في الحال، «خلال ساعة سألتهمه». الوحش كان يتلذذ بالرعب الذي يتسبب فيه، كان يستمتع بقوته المطلقة المهتزة من اللذة. كان سيد المشاعر.

هذه اللمحة في علم الإجرام مفيدة لفهم ما يحدث حاليا داخل مجتمعنا، فثقافتنا الترفيهية تعمل بنفس طريقة المجرمين المنحرفين، وكمثل هؤلاء تعتدي على إحساسنا. كثير من الأفلام والروايات وألعاب الفيديو والرسوم المتحركة تسير على هذا النحو من الإثارة المنحرفة، نحن نمثل رهائنهم العاطفيين. مَن من المشاهدين لم يسبق له أن مر بالتجربة التالية، الصادمة، خصوصاً عندما يكون مصحوبا بالأطفال: يكون أمام جهاز التلفاز أو في السينما، وفجأة يظهر مشهد مزعج، عمل وقح، اغتصاب، مذبحة رهيبة. على غرار المضطرب عقليا، يأخذ مخرج الصورة جمهوره على حين غرة ويخضعه لسلطته.

هذه هي العبارات التي كانت مجلة «تيليz» تعلن بها عن الفيلم التلفزي الفرنسي لسلسة «الدوار» الذي أذيع في 23 فبراير 2000: «في البداية، حادث بوحشية لا مثيل لها كفيلة بزعزعة الهواة الأكثر اعتيادا على الفزع السينمائي» يضيف المعلق: «نظن أنه الخلاص، خطأ». لن تكون هناك فترة للاستراحة عند المشاهد، على غرار ضحايا القاتل بالتسلسل، علينا أن نشرب كأس الهلع حتى الثمالة، فالقصة هي كذلك لن تكون رحيمة. «تيليZ» تحيي هذا التطرف: «بخبرتها في الفزع الكبير المجمد وفي فوران الدم، نجحت سلسلة «دوار» في تحديها وهو الإبهار».

النموذج الفكري للإثارة المنحرفة الذي يطغى على القصص الخيالية، يظهر بالخصوص عندما يكون مصدر المفاجأة شخص، هو حتى هاته اللحظة عادي وباعث على الاطمئنان، ولكن يتبين فيما بعد أنه مضطرب نفسانيا أو غلماني أو قاتل. الإثارة المنحرفة هي ليست فقط مجازا لوصف حدث ما في أحد المشاهد، ولكن المضمون نفسه للقصة. الارتباك الذي يسيطر على المشاهد هو نفسه الذي يمكن أن يشعر به في حضرة منحرف حقيقي. السؤال المطروح هو كالتالي: عندما يصنع المخرجون هذه الشخصيات المقلقة، التي تطمئن المشاهد قبل أن تفصح له عن نواياها الشنيعة، ألا يلعبون مع جمهورهم تحت غطاء التسلية، نفس اللعبة المنحرفة للمضطرب نفسانيا؟ ألا يتصرفون هم كذلك بطريقة منحرفة؟

هذا ليس كل شيء. القاتل بالتسلسل يحتاج إلى ملاحظة المشاعر التي يسببها، وسلطته المطلقة على الإحساس تصاحبها متعة رؤية القلق على وجوه الضحايا. وهكذا وبنفس الطريقة تتعامل ثقافة التسلية مع جمهورها، فتلتقط بلهفة الإشارات الدالة

على التأثير العاطفي الذي تحدثه. في حالة ألعاب الفيديو والرسوم المتحركة والأفلام، تتكون هذه الإشارات من أرقام المبيعات أو الحضور داخل القاعات. في حالة التلفزة، تقييم الاستجابة العاطفية يتم عن طريق رصد نسبة المشاهدة أو «الأوديما» L'Audimat. على غرار الإلكترومتر الذي يرصد المشاعر عن طريق المقاومة الكهربائية للجلد، أرقام الحضور التلفزي تقيس الرجة العاطفية والتخلخل النفسي للجمهور. عندما تكون الأرقام جيدة، يستطيع المسؤولون تهنئة بعضهم البعض، فيقولون: نعم، نحن حقيقة أسياد المشاعر.

الفصل الثامن

مشاعر الصدمة ومشاعر التأمل

حياتنا الشعورية تتدهور تحت تأثير المعالجة المخدرة والمضرة في نفس الوقت، التي تخضع لها. التهييج الشعوري الزائد، حالات الترانس الشامانية، استغلال الجغرافيا والإثارة المنحرفة هي الصور الأربعة لانحلالنا، هي المواد الأربعة التي تقتل إحساسنا ببطيء ولكن بثبات. يجب الآن تدقيق التحليل بإدخال التمييز بين نوعين من المشاعر. هناك بالفعل استقطابين متباينين في الحياة الشعورية.

التنهد والصرخة

لنراقب شخصا يتسلى في الجبال الروسية، أو في حفلة ملاهي، أو بلوحة حاسوب، يظهر في الطريقة التي يتصرف بها شيء من اللهفة، حيث أن المشاعر التي يحس بها تنزع منه من وقت لآخر صيحة تشبه الصرخة. فلنعتبر على العكس شخصا مأخوذا بسماع عزف منفرد أو في حالة تأمل لمنظر جميل. إذا ما حصل وأظهر مشاعره، فلن يكون ذلك بإطلاق صرخة، ولكن بإطلاق تنهيدة. هذان الشخصان يتأثران، ولكن بطريقة مختلفة. مشاعر الشخص الأول تشبه تدفقا مفاجئا. النوع الآخر من المشاعر يعبر عن حالة

داخلية هادئة، مولوعة وشاعرية. في الحالة الأولى، المشاعر هي عبارة عن انفجار، في الحالة الثانية عن سيلان، هذان النوعان من المشاعر يتعارضان مثل تعارض الارتجاج مع الخشوع، والإحساس القوي مع الموقف التأملي.

عندما نسجل التغيرات الفيزيولوجية التي ترافقهما، نحصل بالتتابع على منحنى على شكل قمة ومنحنى على شكل تموجي. أنطونيو دماسيو سجل هذا الاختلاف في الشكل الزمني في كتابه «الإحساس نفسه بالذات»: «لدى المشاعر العديد من الأشكال الزمنية، بعضها يعمل على شكل تخطيط ذو طابع «انفجاري». إنها تمر من إقلاع سريع نسبيا، شدة قصوى، ثم نزول سريع [...]. مشاعر أخرى لها تخطيط على شكل تموجي».

هذان النوعان من المشاعر لهما ارتباطات مختلفة بالوقت. الأولى تسجل في لحظة، فتنفجر على شكل صاعقة، ويكون نظامها هو التتابع السريع والتنوع. لشخص المتلهف للاستمتاع باهتزازات جديدة، ينسى سريعا تلك التي أحس بها للتو، وهو في انتظار الأخريات القادمة. مشاعر النوع الثاني تتميز خلافا لذلك بمدتها الزمنية التي هي أطول من الأولى. الشخص الذي يشعر بها يترك الوقت للحدث العاطفي للتعمق والتطور[1]. وبهذا يسهل تحول مشاعره إلى أحاسيس. لهذا سنسمي «مشاعر الصدمة» مشاعر النوع الأول، وهي مناقضة لمشاعر النوع الثاني، التي سنسميها «مشاعر الأحاسيس» أو «مشاعر التأمل»[2].

1- «الإحساس نفسه بالذات»، الكاتب المذكور أعلاه، ص 337.

2 -التمييز بين مشاعر الأحاسيس ومشاعر الصدمة تم اقتراحه من خلال أعمال بييرجانيت، راجع كلود بريفوس، «الفلسفة النفسية لبييرجانيت»، المصدر المذكور سابقا، ص194. يتناسب هذا مع التمييز الذي يضعه أنطونيو دماسيو بين مشاعر الانفجار ومشاعر التموجات.

في حالة مشاعر الصدمة، الحالة العاطفية ليس لها الوقت الكافي للتنوع والنضج. كل شيء يحدث نوعا ما، كطلقة واحدة. الطاقة الشعورية يتم استهلاكها قبل أن تتحول إلى إحساس. على العكس من ذلك، يمكن التلذذ بمشاعر الأحاسيس طويلا، فحلاوتها تمتد عبر الزمن، تنطبق عليها الكلمات التي عبر بها سان برو عن حبه لجولي في روايته هيلوويز الجديدة: «كنت أستمتع بشدة بالإحساس اللذيذ الذي يجعلني أحيا»[3].

هناك فرق في القيمة بين هذين الشكلين من المشاعر. مشاعر الأحاسيس تظهر أكثر غنى من مشاعر الصدمة، هذا ما عبر عنه كذلك روسو في إحدى رسالات سان برو، عندما قابل «بطء» مشاعر الأحاسيس «باضطراب» مشاعر الصدمة: «يالبطء الروح الهادئة! كم تتجاوزين الشهوات المضطربة والسرور المجنون والفرح الهائج، وجميع الإثارات [...]! متعة هادئة وصافية لا يوجد لها مثيل داخل شبقية الحواس [...]!»[4].

الفعل والتأمل

علاقة مشاعر الصدمة بالعالم مبنية على الفعل، فمن المعلوم أن مشاعر الخوف والمفاجأة والغضب (وهي من مشاعر الصدمة النموذجية)، تكون مرفوقة بالفعل أو تولده. إنها تتماشى مع ضرورة التكيف والميول إلى البقاء على قيد الحياة الذي كان نابعا من المشاعر خلال التطور. أهميتها تتجلى في قدرتها على توليد رد فعل سريع ، لاسيما تجنب خطر ما. وهو ما ينطبق عليه التعريف المقترح في القرن 19 من طرف تيوديل ريبو: «المشاعر تمثل رد

---

3 -جولي أوهيلوويز الجديدة، الجزء الخامس، الرسالة التاسعة، ص 602.

4 -جولي أوهيلوويز الجديدة، ص90.

فعل الشخص على كل ما من شأنه أن يمس الحفاظ على الفرد أو النوع »[5].

مشاعر الصدمة تمكننا من التحرك دون حاجة لإضاعة الوقت في تحليل الوضع. كمثال على ذلك السرعة الفائقة لردات الفعل في أوقات المفاجأة أو الخوف أو الاشمئزاز. الوصف الوظيفي للمنطقة الدماغية المسماة اللوزة، يسلط الضوء على هذا الانفعال الذي تحدثه مشاعر الصدمة، حيث يكتب دانييل كولمان: «اللوزة شديدة الفعالية في مواجهة الخطر عندما لا يكون للقشرة الدماغية الجديدة الوقت لفهم ما يقع. الخط السريع الذي يجمع النظر والسمع باللوزة مرورا بالمهاد، يلعب دورا أوليا: إنه يمكن من التدخل عندما يكون ضروريا اتخاذ ردة فعل آنية»[6]. خلال التطور، من المؤكد إذن أن أهمية الإبقاء على مشاعر الصدمة كانت كبيرة[7].

على عكس مشاعر الصدمة التي هي في خدمة الفعل، مشاعر الإحساس تتفتح عندما نتوجه إلى العالم في وضعية تأملية. لهذا، وفي بقية الكتاب، سنستخدم دون تفريق التسميتان، مشاعر الإحساس أو مشاعر التأمل. هذا الشكل من المشاعر يعطي تواجدا داخل العالم مميزا بالجاهزية. فيما تساعد مشاعر الصدمة على البقاء على قيد الحياة، تمكن مشاعر التأمل من الاستمتاع بنكهة العالم. الأولى هي أداة الجسم الفاعل، الثانية مرتبطة بالقلب المنفتح.

5-مذكور في كتاب دانييل روبس، «قلقنا»، دار النشر بيران، 1927، ص: 43.

6 -الذكاء العاطفي، المصدر المذكور أعلاه، ص :45.

7-حيث أنها سريعة وفورية، يمكن أن تقودنا الدارة اللوزية أيضا إلى المبالغة في ردة الفعل. بتخطيها للقشرة الدماغية الجديدة وتحليل الموقف، يمكن لمشاعر الصدمة أن تعطي إنذارا في غير محله. بعض ردات الفعل غير المبررة من الغضب والقلق هي دليل على ذلك.

هذان النوعان من المشاعر يتميزان كذلك بالعلاقات التي تجمعهما مع الحياة الباطنية، فمساهماتهما في إغناء الأنا وفي ثقافة الروح ليست متساوية. خصوصية مشاعر الصدمة هي بقاؤها فوق السطح، كاهتزاز آني، دون تتمة، يسقط في الحال ما إن يبلغ ذروة قصوى. مشاعر الصدمة تشكل زينة الحياة المجنونة، المهتزة والمهيجة، لكنها في النهاية قليلة العمق. على العكس سن ذلك، فخصوصية مشاعر الإحساس تكمن في تموضعها في الداخل على شكل طمي، وتشكيلها لمنفذ يمكن من الدخول إلى أعماق الأنا. بتفاعلها مع الحياة الباطنية تصبح مصدرا للغنى. بينما تظل مشاعر الصدمة ارتجاجا سطحيا، تغير مشاعر الإحساس الشخص بإغنائها روحه. يمكننا أن نقول عنها ما قاله روسو عن الإحساس الخالص: «الإحساس يدخل في القلب»[8]. مشاعر الإحساس تحلل في العمق فتساهم في تأمل الشخص لذاته وتعرفه على خصوصيات نفسه. بترسبها داخل الوعي، فإنها تساعد على «التواصل مع الذات». مشاعر الإحساس هي الضمان لحياة يقظة، بينها مشاعر الصدمة تدفعنا داخل حياة شاردة. الأولى توحدنا، الثانية تشتتنا.

أخيرا، هذان الشكلان من المشاعر يختلفان من حيث تعامل الذاكرة معهما. بعد مدة طويلة من ظهورها، تظل مشاعر الإحساس جاهزة للاستحضار وتوليد نفس الانطباع الأصلي. فتنطلق المتعة من جديد عند كل استحضار، كمكتسب دائم لا يمكن نزعه. وهكذا، فعند استحضار ذكرى نزهة جميلة أو لوحة أو لحظة

8-جولي أوهيلوويز الجديدة، الجزء الأول، رسالة XLVII، ص :108

مضت مع كائن محبوب، نشعر بنفس المتعة، رغم كونها مخففة قليلا. جمعنا في هذا الموضوع شهادة أشخاص ذوي إحساس غني: صوفي، التي تتحدث بحماس عن الأسفار التي تقوم بها كل سنة للبندقية. آن، التي لازالت مسحورة بحفل بيانو حضرته منذ مدة طويلة. ماري، التي تتذكر بعد مضي خمسة عشر سنة، حصة من الإيكبانا ikebana، الفن البوذي المتعلق بالأزهار الذي يمارس في اليابان، فتعيش مرة أخرى، بنفس الشدة، الساعات التي أمضتها داخل إحدى الحدائق، تتأمل الأزهار وتجمع منها باقة بعناية تعبدية.

على العكس من ذلك، تترك مشاعر الصدمة ذكرى مريرة، شيئا ما، لمتعة دون غد، تأثيرها على المدى الطويل هو في الغالب، شعور مضاد لما أحس به الشخص في البداية. كان هذا الأخير قد أحس في الحال بارتجاج شديد واهتزاز شبقي، ولكن في النهاية لم يتم إضافة شيء إلى روحه. في هذا الصدد هناك تجربة فريدة رواها باسكال، الذي سطر بطريقة مؤثرة من خلال ربورتاج تلفزي[9]، مشواره في الإدمان. هذا الرجل الخمسيني كان قد اكتشف المخدرات منذ سنوات مضت. قال للصحفي أن المخدرات وفرت له «متعا بشدة لا مثيل لها»، هذه الأخيرة ولسوء حظه، كانت هي بالضبط ما جعله مدمنا منذ الجرعة الأولى. لكن كان واضحا أن باسكال لم يشعر بأية متعة عند استحضاره لتلك اللحظات ذات المتعة القصوى. الشحنات الشعورية التي أنفق من أجلها مبالغ طائلة، بدت له بعد ذلك كتجارب فارغة. لم يبق شيء من ذلك على الإطلاق. مع أنه استعمل في الشهادة التي أدلى بها أمام الكاميرا،

9- أذيع على القناة الخامسة في 14 مارس 2000.

عدة مرات كلمة «متعة» لنعت مشاعر الصدمة التي عاشها خلال تلك السنوات، إلا أن الذكرى التي احتفظ بها لم توفر له بالطبع أية متعة. لم يكن يبدي سوى الندم والاشمئزاز. هذا الانقلاب في الانطباع الشعوري مميز لمشاعر الصدمة.

هذا هو التصنيف الذي يقسم مجال الحياة الشعورية إلى منطقتين مختلفتين.

انقلاب «الصيغة الشعورية»

يمكننا الآن تحديد التشخيص بخصوص الإحساس المعاصر. حياتنا العاطفية تعاني من اختلال راجع إلى الإفراط في مشاعر الصدمة والنقص في مشاعر التأمل. ففي مجال المشاعر، لدى الفرد المعاصر ميول لانتقاء تلك التي تزوده بأقصى الإهاجات، فيفضل مشاعر الصدمة التي يصحبها الصياح، على مشاعر التأمل التي يصحبها التنهد. حياتنا العاطفية وكمثل المرض الذي يطبعه انقلاب في صيغة كريات الدم، تتسم هي كذلك بانقلاب في «الصيغة الشعورية». الإنسان المعاصر يفضل المشاعر المتفجرة على الأحاسيس المخففة والدائمة، يعطي قيمة للتفجر العاطفي أكثر من التعبير الشاعري، للترانس أكثر من الانشراح، للأدرينالين أكثر من التأمل؛ يبحث بشره عن فرص الارتجاج والانطلاق الهستيري. حياته العاطفية هي عبارة عن حركة وليس عن خشوع، عن فعل وليس عن تأمل، تجري كمسلسل من الصدمات، بدل الامتداد في شكل هادئ من الجاهزية تجاه العالم. التموج النفسي الذي يتفاعل داخل الوعي، والذي يغني بطميه مجرى الحياة الباطنية، فيكون له

بذلك الوقت للتحول لإحساس؛ هذا النوع من المشاعر له جاذبية أقل من الإشباع الآني المتشنج.

استفاقة الإحساس التي تحدث في بداية هذا القرن، تؤدي إذن إلى حالة متناقضة. مشاعر الصدمة يتضح أنها فخ، لكونها مجرد صديق مزيف للإحساس. إعطاؤها قيمة زائدة يؤدي إلى التخلي عن الإحساس. الحياة الشعورية الحالية هي مزيج من التخدير والإدمان، من التوتر الزائد والفقر. الاصطدامات المتكررة تضعف الإحساس. أصبح الإنسان وهو في حالة هيجان دائم، يتأثر كثيرا، لكنه لم يعد يعرف كيف يحس، يعاني في نفس الوقت من حالة تهييج زائد ومن إحساس منعدم.

الفصل التاسع

تهييج زائد مع إحساس منعدم

تفضيل مشاعر الصدمة الذي قمنا بتشخيصه هو أصل الشر الذي ينخر النفسية المعاصرة ويشكل العامل الأساسي لمرضنا الجماعي. إنه يؤدي إلى سلسة اختلالات تشكل «متلازمة فقدان الإحساس». فلنطلع على أعراضه السريرية.

الميزة الأولى هي فقدان الانتباه، حيث يكشف علم النفس عن معدلات متزايدة الارتفاع عند الأطفال والمراهقين لسلوك مميز «بقصور الانتباه وفرط الحركة»[1]. يظهر هؤلاء الأشخاص اندفاعية غير متحكم فيها، وتهييجا زائدا مصحوبا بصعوبة في تثبيت الانتباه. وحيث أننا نميل لمشاعر الصدمة أو نعجز عن الدخول في هدوء الأحاسيس، فكلنا معنيون بهذا الوصف السريري. الميزة المرضية الثانية هي انتشار المشاعر السلبية في النفس الجماعية، فكثير من مشاعر الصدمة هي في الواقع من النوع السلبي: الخوف، الاشمئزاز، الغضب. لهذا فإن انتشار مشاعر الصدمة على حساب مشاعر التأمل يعزز كل ما هو قبيح، منفر، فظيع، مرعب ومنحرف.

---

1 -المرجع، «الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية الرابع »DSM IV .

تنمية مشاعر الصدمة هو في الغالب تنمية لما هو سلبي، نذكر هنا العرض المفرط لمشاهد العنف في الثقافة الترفيهية: تشير الإحصائيات أن المراهق الذي تفرج على التلفاز منذ صغره بمعدل ثلاث ساعات يوما (وهذا يمثل مدة «عادية»)، تابع 40.000 جريمة قتل و3000 اغتصاب جنسي. نظام مشاعر الصدمة يحرقنا بصور الشر.

من الأموسنتيانس إلى الأُموأرتِفكس[2] Homo artifex

المظهر الثالث لأزمة الإحساس هو نسيان ما هو طبيعي، حيث أن مشاعر الصدمة تكون مرفوقة بما هو اصطناعي. فيتم إعدادها وإثارتها وانتزاعها بالقوة بمساعدة المنبهات، المواقف المهيجة، الإخراج المبهر، أشعة الليزر، الشاشات، الضجيج، التقنيات الخاصة. وبذلك يتحول الأموسنتيانس إلى أُموأرتفكس. مشاعر التأمل تكتفي بنظرة طفل، بحفيف الريح بين الأَشجار، بغناء طير، برقرقة نهر، بقصيدة أو بلوحة. أما بالنسبة لهواة الأحاسيس القوية، فهذه الأشياء ليس لها جاذبية؛ الرقص التلفزي للصور، الصور المركبة، ألعاب الفيديو، العروض الضخمة، الحفلات المجنونة، الأنشطة الصاخبة، الموسيقى الحماسية، الهذيان الجماعي، رياضات المخاطرة، حالات الترانس؛ كل هذا يستنزف قدرتهم على الإحساس بأشياء بسيطة. لقد أصبحت أرواحهم الملوثة بأحاسيس قوية، غير مفتوحة لجمال العالم. لم يعد بإمكانها الخفقان والارتعاش أمام ما هو طبيعي. إنها تشبه أراضي جنوب الصحراء التي تغرق دوريا بفيضانات مدمرة والتي هي رغم ذلك

---

2 -أرتفكس بمعنى اصطناعي: (المترجم).

مفتقرة إلى الماء، كذلك الإنسان المغمور بمشاعر الصدمة، يفتقر إلى الماء الثمين المتمثل في مشاعر التأمل.

في لوحة لجاينزبورو[3]، نرى طفلين يلعبان على ضفة الماء. أحدهما يمسك قصبة صيد، بينما يلهو الآخر بمركب خشبي صغير. كان الفرح الذي يشعران به يضم ما هو طبيعي بنفس قدر ما هو اصطناعي. حاليا، أصبحت الحواسيب أسيادا للتسلية الطفولية، والحياة العاطفية مرهونة بالأدوات، والإحساس خاضعا للتكنولوجيا.

من جهة أخرى تنشأ بين مشاعر الصدمة والتقنية حلقة مفرغة يجب الإشارة إليها. فكلما غزت التكنولوجيا المجتمع، كلما زاد لدينا الميول لمطالبتها بتزويدنا بمشاعر الصدمة. هذا يستحق منا التفسير. فمن الوهلة الأولى، تظهر التكنولوجيات الجديدة كأعداء للحياة الشعورية. تطويرها يحدث شعورا بالاستيلاب. الإلكترونيك والمعلوماتية تولدان محيطا تقنيا يكون فيه تصوير الأشياء بديلا عن الأشياء ذاتها. الإنسان وهو محاط بأشياء اصطناعية، لديه إحساس بالعيش في عالم مجرد وغير حقيقي، وبالتالي فهو يخشى أن يضعف هذا العالم الاصطناعي إنسانيته. لهذا فإنه يسعى إلى جعل استخدام هذا العالم مرحا، حيث تعمل الصور الرقمية، رسومات الحاسوب، الخيال، النظارات ثلاثية الأبعاد (3D) والهولوجرام، كمولدات للمشاعر. بهذه الطريقة يبعد الإنسان نفسه عن الخطر ويبدد قلقه، فيقول في نفسه: «تلك الاختراعات التقنية لن تكون استيلابية بما أنها قادرة على جعلي أهتز... هذا العالم الذي تجتاحه العقلانية لا يجردني من إنسانيتي،

3- توماس جاينزيورو (1727 - 1788) رسام إنجليزي للصور الشخصية والمناظر الطبيعية. (المترجم)

لأنه يوقظ في نفسي ما هو في الأصل إنساني كالخوف، القلق، الفرح، الغضب...».

الميول إلى مشاعر الصدمة يؤدي في المقام الرابع إلى تفقير الحياة الباطنية. ما الذي يثري الحياة الباطنية؟ إنه ترسب المشاعر المحسوسة في اللحظات التي نقبل فيها على العالم في حالة انتباه. الحياة الباطنية تطعم بالجاهزية للتأمل. الأشخاص الذي «يظهرون شيئا من الباطنية» يستمدون كنزهم الداخلي من الانطباعات المأخوذة من الخارج، والتي يمكن أن تتجلى بالنسبة لشخص ما، في الإحساس بالمتعة أمام لوحة رسم؛ وبالنسبة لشخص آخر، في الإعجاب المحسوس أمام منظر طبيعي، أو تشارك فرحة مع طفل، أو حوار مع شخص محبوب، أو لحظة خشوع في حفل ديني. الأنا العميق ليس غنيا بخصوصية ذاتية، ولكن بمشاعر تطورت بداخله وبمواقف تأمل حماسي عبأته. الحياة الباطنية تشكلت عبر تراكم ذكريات اللحظات التي كنا فيها منفتحين على العالم، فهي عبارة عن ترسب وتكاثف تأملي لتلك اللحظات المميزة، التي امتدت في الذاكرة وشكلت الذاتية.

لكن ماذا يحدث عندما تختزل الحياة الشعورية في تتابع لمشاعر الصدمة؟ إنها تتوقف عن التفاعل داخل الوعي العميق وبالتوازي مع ذلك يضعف هذا الأخير، فتختنق الحياة الباطنية، مما يؤدي إلى استنزاف الخيال. حكى لي أحد أساتذة اللغة الفرنسية، أنه أعطى لتلاميذه في المستوى الثالث موضوع الإنشاء التالي: «تصوروا الحياة في زمن موليير». وا أسفاه! أوراق الامتحان التي جمعها كانت مليئة بالأشرار والشرطيين، باقتحامات للأبناك وطلقات قاتلة، كأي فيلم تلفزي سوقي.

لا شيء يظهر حالة التلف في ذاتيتنا أحسن من المقارنة مع النموذج الرومنسي المجسد من طرف شاطوبريان، الذي وصف عبر خصائص رينيه غزارة الحياة الباطنية التي كانت تحركه. لقد كان يتقاسم قدرته العجيبة على الحلم أثناء اليقظة مع عدد كبير من معاصريه. يمكننا القول بأن روح شاطوبريان كانت «مفعمة». كانت بالفعل تجتاح الحقيقة اليومية. نقرأ في كتابه «مذكرات لما بعد الموت» : «خيالي المتوقد كان يمتد إلى كل الأشياء فلا يجد القدر الكافي من الغذاء، لقد كان بإمكانه التهام الأرض والسماء»[4]. أمام هذه الوفرة الزائدة في الإحساس، كان للواقع الخارجي دور باهت. بالنسبة لشاطوبريان (وكذلك موسي أو لمارتين)، كان العالم حقا أقل غنا من تخيلات البشر.

هذا الفرق بين الشساعة الداخلية والحقيقة، هذا التفاوت بين غنى الروح وفقر العالم الخارجي، هو ما يسميه الرومنسيون «موجة العواطف». يلخص شاطوبريان: «الخيال غني، وفير ورائع، الوجود جاف ومحبط. إننا نسكن بقلب مليء عالما فارغا»[5]. لهذا لم تكن هناك حاجة للمهجيات الاصطناعية، وكانت الروح الرومنسية في غنى عن تعريضها لمشاعر الصدمة. حيث أنها كانت تتوقد من تلقاء نفسها. الريح، حفيف الأشجار، السحب التي تجري في السماء، عطر الزهور، هيئة امرأة، كانت تكفي لإحداث انطلاقة للخيال. «يكفيني القليل لأحلام يقظتي» يصيح رينيه.

4- «مذكرات لما بعد الموت»، كتاب الجيب، مجلد 1، ص :126.

5 -رواية رينيه لشاطوبريان، مجموعة فوليو، ص :170.

الوضعية انقلبت في أيامنا الحالية، الخيال أصبح فقيرا، بينما يشع العالم الخارجي بألف لون. فرقص الصور وتوالي النغمات الإلكترونية وأشعة الليزر والأنشطة الصاخبة، أصبحت أكثر لمعانا من تخيلاتنا. الأنشطة المنظمة تعوض النقص في الذاتية. تعمل الصدمات على تهييج الحواس على الدوام، والأحاسيس القوية على تخدير الحس. كان الداخل بالنسبة للرومنسيين غنيا، والعالم مملا. حاليا أصبح الداخل متيبسا والعالم بهيجا. «نحن نسكن بقلب فارغ عالما مليئا...» عبادة المشاعر تعوض الإفراط في الإحساس بحس الإفراط. إنه داء القرن الجديد.

من الإنسان الرومنسي إلى الإنسان النشيط

الميل إلى مشاعر الصدمة يؤدي إلى اختفاء الحزن الرومنسي، مما يخدم النزعة الاستهلاكية للطاقة، وهذا يفسر بالفرق في المنحى الزمني لهذين النوعين من المشاعر. فمشاعر التأمل تتميز كما رأينا بامتداد زمني يساعدها في التحول إلى إحساس. إنها تندمج داخل تيار الوعي الذي يتدفق نحو الخلف في اتجاه الماضي على شكل شبكة متواصلة. بدخولها في القلب وبتسللها داخل الحياة الباطنية، تتحول مشاعر التأمل إلى ذكرى، وبهذا تتلون بصبغة من النوسطالجيا، فتكون مقرونة بفكرة الهروب من الوقت. لهذا فإن القرنين 18 و19، اللذين أشعلا مشاعر الإحساس، كانا كذلك فترة هيجان للروح. من روسو إلى لمارتين، من موسي إلى بودلير، شكل الحزن الطابع السائد للإحساس. كان الجميع يأخذ وقته لاستحضار واسترجاع الأحاسيس القديمة التي كانت تظل ثابتة على مر الوقت. الجولة الشهيرة لسان برو وجولي على البحيرة

سنوات عديدة بعد ارتباطهما، هو نموذج مثالي لهذه الرومنسية الحزينة، يكتب سان برو:

«الغناء المرح للشناقب ذكرني بمتع مضى عليها زمن طويل، وعوض أن يفرحني، أتعسني. شيئا فشيئا بدأت أحس بتضخم الحزن الذي اعتراني [...] تبادرت إلى ذهني نزهة مماثلة قمت بها معها (جولي) خلال بدايات حبنا الجميلة. كل الأحاسيس اللذيذة التي كانت تملأ روحي تحركت فيها من جديد فآلمتها. كل أحداث شبابنا، دراستنا، حواراتنا، رسائلنا، مواعدنا، متعنا، كل هذه الحزم من الأشياء الصغيرة التي يضمها إطار السعادة التي عشتها، كل شيء كان يعود ليزيد من تعاستي الحاضرة، وليحتل ذاكرتي. كنت أقول في نفسي: كل شيء انقضى، تلك الأوقات هاته الأوقات، هاته الأوقات السعيدة مضت لتختفي نهائيا»[6].

سيكون من المبالغ فيه القول بأن الناس حاليا لا يمكنها المرور بحالات عاطفية مماثلة للتي وصفت في هذه السطور. لكن، وبالطبع، لا يشكل الحزن التأملي الوثيرة السائدة لإحساسنا. النموذج الرومنسي النوسطالجي المجسد من طرف سان برو الذي أذهل أجيالا، لم يعد يمثل قدوة لمعاصرينا. لقد تم تعويضه «بالباحث عن الأحاسيس» (sensation seeker)، الذي ميزته الأساسية هي الحيوية، وفيما يلي السبب في ذلك.

عبادة مشاعر الصدمة تعطي قيمة للحظة الحالية، ومن جهة أخرى هي تعمل على جعل الحياة العاطفية زيادة في التجارب القوية المتراكمة على شكل تحولات متتابعة. لهذا فإن هاجس

6- جولي أوهيلوويز الجديدة، الجزء الرابع، الرسالة XVII، ص: 503.

الشخص لم يعد هو إمداد المشاعر بالوقت لتمكينها من التحول إلى إحساس، ولكن جمع أكبر قدر ممكن من «اللحظات القوية». أصبحت الروح الرومنسية التي تزرع بورع الذكريات وتجتر الماضي، تئن تحت وطأة الانتظار المحموم للأحاسيس الجديدة. العلاقة نفسها مع الوقت تتغير، فالحياة الشعورية لم تعد موجهة نحو الماضي ولكن نحو المستقبل، في بحث حماسي عن انفعالات قادرة على إيقاظ إحساسنا النائم، وتحريك جمودنا كأشخاص غير مبالين. الحزن الذي يتشبث بالماضي يعارضه الطمع الاستهلاكي الذي يمتد بدون توقف نحو المستقبل. مستقبل تزداد الرغبة فيه كلما رسم أفقا لامحدودا من التجارب المهيجة. هناك دائما شيء ما يهيج الإنسان المعاصر.

لكن، ما هي الخاصية الضرورية للاستمرار في هذه الوثيرة من الاستهلاك؟ ما هي الموارد التي يجب امتلاكها من أجل الرعي بدون انقطاع في حقل الأحاسيس القوية، ومن أجل تحمل هذه الصدمات المتكررة؟ يجب قبل كل شيء امتلاك الطاقة. وحده الإنسان الذي هو في قمة لياقته يمكنه التزحلق على الموجة المتعبة لمشاعر الصدمة. الشرط الأساسي للتصرف «كباحث عن الأحاسيس» هو الحيوية. النفسية الجماعية استبدلت الرومنسي الحزين الذي يستسلم للأمواج التي تجتاح روحه بنموذج الإنسان الحيوي. ليس من الصدفة إذن أن يحتل موضوع الطاقة موقعا مركزيا في أنشطة الصحة الجيدة وتطوير الشخصية. «حرروا ما بداخلكم من طاقة» يكرر المعالجون ومختصو الانفتاح. هذا النداء من أجل الحيوية نابع مباشرة من الميول إلى مشاعر الصدمة. بينما كان روسو يكتفي بإحساس فاتر لوجود حزين، فإن عصرنا الحالي

يتخذ له كقدوة «دون خوان المشاعر»، الذي يستمد من مخزونه الطاقي القوى التي ستمكنه من التهام العالم.

الفن بين السمو وأسلوب الصدم

الميول لمشاعر الصدمة يشمل أيضا الحياة الفنية، فالفن المعاصر لحقه كذلك الجنون العاطفي. القيمة الجمالية لعمل ما تميل أكثر فأكثر إلى أن تقاس من خلال الصدمة التي خلفها. بالنسبة للمبدعين والجمهور، التأثير المحدث مهم أكثر من المنتوج نفسه. عند تصميم الأشكال الجميلة التي تجلب النشوة، يفضل الفنان المعاصر، في الغالب، الحالات المتجاوزة للحد، والمخالِف للمألوف الذي يثير الفضول، والجرأة التي تصدم العادات. هَاجس التجديد يقود إلى الشذوذ والقبح والهلوسة. كل عمل جديد يصبح نوعا ما حدثا مميزا. بهجومه على الإحساس وتعنيفه للذوق، يضع الفنان نقطة شرف للأفعال: صدم، هز، أثار. هذه الكلمات التي تتكرر بكثرة في خطابات المصممين، تشير إلى أن نموذج الفن المعاصر هو مشاعر الصدمة وليس مشاعر الإحساس. أصبح حاليا «خلق الانفعال» بالنسبة لعمل ما، أكثر أهمية من «خلق الإعجاب» حيث أن الهدف ليس هو التأمل، أي الدخول في العمق، ولكن الإثارة. بالعمل على التمويه والفضح، فإنه يصدم ويزعج، معيار قيمته ليس هو مدى مساهمته في الإغناء، وإنما في مدى انفعال الجمهور، الذي يجب قبل كل شيء «إثارته».

هذا هو اللب الحقيقي للمُعاصَرَة. العمل الفني ذو الطابع الكلاسيكي، الموجه لإيقاظ مشاعر التأمل، يحرص على خلق الإعجاب، ويصبو إلى الجمال لفتح معبر نحو الحياة الباطنية.

المُعاصَرَة، على العكس من ذلك تسعى لإحداث ردة فعل من نوع مشاعر الصدمة.

في سنة 1999، قُدِّمَت التمثيلية المسرحية «السيد» في مسرح بالضاحية الباريسية. كان مستوى هذا العرض، بدون نقاش، رفيعا، لكن وبسبب جرأته، كان يعطي للمُشاهد شعورا بالخيانة. وهكذا فإن المائة الأولى من الأبيات الشعرية كانت مصحوبة بصوت القيثارات التي تعزف الفلامنكو، وكانت شيمان خلال فترة من العرض عارية الصدر. عند تلقيه انتصار رودوريكي على الموروس (أو الموريون)، تخلى الملك عن كل الرسميات، وأطلق الهتافات! وهو في حالة من الفرح مع وزرائه الذين حملوه على سواعدهم وأخذوا يؤرجحونه في الهواء كعميد لكرة القدم. هذه الاختيارات المشهدية على الرغم من أنها كانت مسلية، فقد أساءت لمتعة النص. هذا الوابل من المفاجآت أدى إلى خنق المشاعر الأدبية، شعر كورني (كاتب مسرحية السيد) بدا وكأنه مجرد ذريعة لإبداعات تقارب الشذوذ. العروض المسرحية من هذا القبيل تضاعفت في أيامنا الحالية. كثيرون هم المخرجون الذي يظهر أن هدفهم الوحيد هو «الاستمتاع»، باللعب على خلق الدهشة والفضيحة. ولكن ماذا يحل بجماليات الأبيات الشعرية؟ هل يظل الجمهور، المبهور بالعرض والمذهول بالاختراع المشهدي، يستمع لهم؟

في ربيع سنة 2000، عُرض عمل فني للفنان السويسري الشاب ستيفان دافلون في إحدى صالات العرض الباريسية. تحت اسم «إيرلس» (Air Less)، اكتشف الزوار شكلا من البيوت ذو زوايا دائرية، مشكلا كبسولة مغلقة، مع صباغة حائطية بيضاء

ناصعة بشدة. في هذا المحيط المتجانس، كان البصر غير قادر على أن يعلق بشيء، وكان الزائر يشعر بفقدان المعالم، بطبيعة الحال، فقد كان الفنان يتعمد إحداث تيه حسي. لقد أحدث صدمة فيزيولوجية.

هذه الغرفة الفريدة من نوعها كانت تشبه علب العزل الحسي التي رُوِّج لها من طرف حركة العصر الجديد. غرف العزل الحسي هي عبارة عن مسكن من أربعة أمتار مربعة، مغلقة بالكامل، معزولة عن الأصوات وبدون إضاءة؛ حيث يطفو «العصري الجديد» الباحث عن أحاسيس غير مسبوقة، فوق ماء حرارته 37 درجة مئوية وشديد الملوحة من أجل تعزيز الشعور بانعدام الثقالة. في هذا المحيط حيث الرؤية والسمع لا يستقبلان أية إشارة، يدخل الشخص في حالة متغيرة للوعي قريبة من التنويم المغناطيسي، مما يولد تجربة نفسية وروحية تعمل على تفتح الوعي؛ وهذا هو الهدف الأسمى لحركة العهد الجديد. العمل الفني لدافلون كان يشبه هذا، كان موجها لإحداث حالة متغيرة للوعي عند الزائر. كتبت المجلة الفرنسية «Les Inrockuptibles» معلقة على العرض: «دخول كبسولة دافلون البيضاء هو دخول في تجربة بصرية منعدمة الثقالة تماما». يضيف الصحفي مدققا شعوره: «إنه نوع من الاصطدام الاختباري»[7]. فهل أصبح الاصطدام الاختباري حاليا هو قمة التجربة الجمالية؟ «إيرلس» هو نوع من تلك الابتكارات التي تعوض البحث عن الجمال وتصميم الأشكال الجميلة والاندفاع نحو السمو، باستخلاص الأحاسيس الرائعة بطريقة عنيفة. إنه فن الصدم النفسي. هل لازال الأمر يتعلق بالفن؟

7-جون ماكس كولارفي مجلة les inrokuptibes 13/7مارس 2000.

أخيرا، فإن الميول إلى مشاعر الصدمة يؤثر في السلوك الغرامي. إنه يقصي الحب الرومنسي لفائدة البحث عن تجارب جنسية. منذ سنوات مضت، نُشر رسم هزلي يظهر رجلا وامرأة أثناء الجماع في وضع كلابي. خلاَل العملية الجنسية، يطلب الرجل من شريكته: «ماذا لو قمنا بنزهة سويا في الأحد القادم؟ فترد المرأة: «لا، لا نحب بعضنا كفاية لهذا». هذا الحوار يظهر نوعا من الانحراف في الحياة العاطفية، الناتج عن الثورة الجنسية لسنوات 60 و70. التعبير عن الإحساس، الإعجاب بالحبيب، سمو الارتباط بالآخر، الانسجام العاطفي، هي أمور تتلاشى في طريق البحث عن الأحاسيس القوية. بالنسبة لكثير من الأشخاص، تركت طقوس الغزل العاطفي والحديث الغرامي مكانها لإباحية منعدمة الشاعرية، تبلغ ذروتها في أشكال من السادية والمازوشية والمخدرات والجنس الجماعي. عبادة الانتشاء عوضت خريطة الحب[9].

من جهة أخرى فإن التصور الذي تتبناه حضارة ما في مجال العشق، يوجه الاتجاه العام للإحساس؛ فهو يحدد قدرة الأشخاص على «الإحساس» في مجالات أخرى غير الحب. تشجيع الإحساس العميق والسمو الشاعري يساهم في إثراء الإحساس، وغرس التعبير الشعري بدقة يعمل كذلك على تفتح المشاعر الأدبية والإحساس بالطبيعة.

---

8 - تستعمل كلمة «Passion» عاطفة عادة للتعبير عن إحساس قوي ودائم، أما كلمة «Emo-tion» شعور فهي تعبر عادة عن إحساس أكثر قوة ولكنه عابر. (المترجم)

9- «Carte du Tendre»، خريطة الحب: خريطة خيالية ظهرت في القرن 17، تصور مراحل الحياة العاطفية. (المترجم)

في هذا الخصوص، من المرجح أن تراجع الحب الرومنسي وتسويق المشاعر الجنسية يتحملان مسؤولية إفقار الإحساس الأدبي الذي يتفشى في الثانويات والجامعات بشهادة الأساتذة. المراهق الذي يمارس الجنس بانتظام ابتداء من سن الثالثة أو الرابعة عشرة، هل بإمكانه أن يتأثر عند قراءة قصيدة للمارتين أو فيرلين؟ هل بإمكانه أن يتماهى مع جوليان سوريل عندما يتجرأ على السيدة دورنال؟ أن يتقاسم شغف فريدريك الذي يحترق حبا من أجل السيدة أرنو. عندما يصبح الجنس هينا، عندما يصبح الحب مميعا، هل ستبقى هناك للشاب أو الشابة طراوة إحساس تمكنهما من تذوق الشعر؟ الممارسة المبكرة للحياة الجنسية تقضي على أسس الإحساس المتوفر من أجل المتعة الجمالية، وتكبح اندفاعات الخيال اللازمة للاستمتاع برفقة الأعمال الفنية الإبداعية.

كلمة أخيرة بخصوص العاطفة، لإتمام وصفنا للإحساس المعاصر. لماذا لا يرغب الإنسان المعاصر في إشباع حاجته في حياة مفعمة داخل إطار العاطفة؟ ألا يمكن لهذه الأخيرة أن تتماشى مع إحساسه الحماسي الصاخب؟ لماذا تتسم حقبتنا بالمشاعر وليس بالعواطف؟

بداية، العاطفة لم تكن أبدا بعيدة عن العذاب والتراجيديا. في اللغة الألمانية، كلمتا «عاطفة» و»معاناة» لهما نفس الجذر (عاطفة: Leidenshaft، معاناة: Leiden)، لكن طبعنا الشهواني لا يؤهلنا أبدا أن نضحي بمتع الحياة المتعددة في سبيل عاطفة حصرية تمدنا في نهاية المطاف بقليل من الأفراح.

كذلك في اللغة الفرنسية كلمة العاطفة «Passion» هي على علاقة بالفعل تألم «Pâtir»، وبالسلبية «Passivité» وغياب الحرية.

إنها بالأساس شيء نخضع له، واختلال في الروح يصيبنا كداء أو مرض. الإنسان العاطفي يحترق بعاطفته. على العكس من المشاعر التي تكمن حلاوتها في كونها مواقف عاطفية نحدثها بإرادتنا. فيمكننا بكامل الحرية خلق الظروف التي من خلالها نحصل على شعور معين. القيام بتجربة معينة أو سفر معين أو ممارسة رياضة معينة أو مشاهدة فيلم معين، يتولد عنه بصفة أكيدة نوع معين من الأحاسيس القوية؛ عالم المشاعر هو عالم التخطيط المسبق. «افعلوا هذا، اشتروا ذلك، احضروا عرضا معينا، من أجل الحصول على مشاعر معينة» هذه العبارات تتكرر في الإعلانات الإشهارية. الإنسان المعاصر يعتبر أن العاطفة تقيده وتتحكم فيه، أما المشاعر فهو من يقررها ويحسبها ويخطط لها؛ أي أن العواطف تؤدي إلى الخضوع، بينما تولد المشاعر «émotion» الحركة «motion» والحركية والحرية. العواطف تَستهلك، المشاعر تُستهلك.

ختاما، العواطف والمشاعر لهما توقيت مختلف. الإنسان العاطفي يحتفظ برابط دائم بموضوعه، كأنه يهب نفسه له. لكن هذا الثبات والإخلاص هو في تناقض مع الطابع النفسي الحالي. فالناس حاليا تهرب من الارتباط الحصري والتعاقد المطلق، وتفضل المواقف العابرة والروابط الهشة. بخلاف الإنسان العاطفي الذي يظل عبدا مربوطا بموضوعه، نحن نسعى إلى الحفاظ على الجاهزية لكل مشاعر العالم. نحن أتباع للكاتب الفرنسي أندري جيد.

النظام المؤقت للمشاعر يرضي ميولنا إلى التنوع. فالمشاعر تظهر بغتة لتستحوذ علينا، وبعد نوبة حادة، تسقط وتنطفئ كالنار في القش، ثم من الممكن أن تنبعث مشاعر أخرى. هذا التعاقب لنوبات الإحساس ملائم للطبع الحالي.

العواطف تجعل الشخص حبيسا لوثيرة واحدة من الإحساس، بينما تستهويه الحياة الشعورية لأنها تعرض عليه متتالية فوضوية من الاهتزازات والسكرات اللحظية. نحن نحب هذه السماء المتغيرة والمتقلبة حيث تتوالى ألوان قوس قزح. نتقلب فرحين، باستخدام لوحة مفاتيح عجيبة، بين المفاجأة، الهلع، التقزز، الإعجاب، الفزع، السخط، المودة، الانتشاء والدوار. بدل الديانة التوحيدية للإحساس المتجسد في العواطف، نفضل الديانات المتعددة للإحساس المتجسد في المشاعر والانفعالية والحماس. عبادة المشاعر توزع شغفنا.

الجـزء الثالث

الاستعمال الصحيح للمشاعر

الفصل العاشر

الجاهزية أو فن الإحساس

ثقافة المشاعر يمكنها أن تكون أفضل أو أسوأ الأشياء، وفي أيامنا الحالية فإننا نشاهد في الغالب عرضا للأسوأ. باختزالها في مطاردة للأحاسيس القوية، فإنها تشوه إحساسنا وتدفعنا نحو شكل خفي من الهمجية.

الرجوع إلى الإنسان الحساس

يجدر بنا الآن أن ننتقل من تحليل الداء إلى البحث عن العلاج، كيف يمكننا تفادي هذا الانحراف في الإحساس؟ كيف يمكننا التوقف عن تعاطي مشاعر الصدمة؟ كيف يجب توجيه الحياة العاطفية لكي تساهم في ثقافة حقيقية للروح؟ باختصار، ما هو الاستعمال الصحيح للمشاعر؟

لإعادة تأهيل إحساسنا المريض، من اللازم تعويض ثقافة مشاعر الصدمة بمشاعر التأمل. فمن جهة، لا يمكن لتيار مشاعر التأمل أن يتشكل إلا إذا تبنينا موقفا مستقبلا ومنفتحا تجاه العالم. ومن جهة أخرى، يجب علينا أن نحرص على جودة الأشياء التي

نوليها اهتمامنا. هذه الأشياء يجب أن تكون سامية وراقية وجديرة بالتقدير، وإلا فسيكون الاهتمام التأملي الذي نخصصه لها مبنيا على الفراغ. يجب أن نتسم بالجاهزية والانتقائية في آن واحد. إذن هناك إصلاح مزدوج ندعو إليه لعلاج الحياة الشعورية. الجاهزية والتأمل هما الخصلتان اللازمتان لكل الذين تعبوا من إضاعة مؤهلاتهم الشعورية في حياة مختلة، ويعتزمون «ممارسة الإحساس»[1] على طريقة روسو.

على مدى القرن العشرين، دعت الآراء الأكثر اختلافا المنبثقة عن الأدب والفلسفة والعلوم الإنسانية إلى الجاهزية، التي كان أندريه جيد قد أعطاها إشارة الانطلاق بتلقينه لنطانيال الشغف أو فن تذوق الكائنات والأشياء والمناظر الطبيعية؛ فكتب في مؤلفه «المأكولات الدنيوية»: «كل جديد يجب أن يجدنا في كامل الجاهزية». مارتين هايدغر رسم الصورة المثالية لإنسان مرتبط بحماية الكائن، إنسان يعتبر نفسه «متواجدا»، وهو بالجاهزية نفسها يسمح للكائن بالظهور. الفيلسوف الوجودي جابرييل مارسيل جعل من الجاهزية موضوعا أساسا لنظريته[2]. عالم النفس كارل روجرز أدخلها في قاعة دروسه بجعلها محورا للعلاقة البيداغوجية، ومنهجا للعلاج النفسي. تحت اسم «انعدام التوجهية»، حدد روجرز نوع الحضور المبني على الإنصات والتضامن والتفهم والقدرة على التناغم مع أفكار وانفعالات المُحاور. المعلمون الروحيون لم يتوقفوا من جهتهم عن الدعوة إلى النفاذية وانفتاح الحواس والتفاعل كشروط مسبقة للتجربة الخارقة للعادة. الجاهزية

1- جولي أوهيلوويز الجديدة، الجزء الأول، الرسالة 12، المرجع المذكور، ص :33.

2-الرجوع إلى كتابه «كتابات في الفلسفة الملموسة» دار النشر كلمار، «فوليو» 1999.

هي كذلك في قلب أنشطة التأطير والمساعدة والإنصات والتطوع التي تتضاعف في أيامنا الحالية، والتي تلعب خلالها العلاقات المباشرة وجها لوجه دورا أساسيا؛ إنها الشرط الأساسي لتحقيق الفعالية. أخيرا، إنها تشكل الطابع النفسي والعقلي الذي يسود في مجال الإيكولوجيا، في مفاهيم العلاقات بين الكبار والصغار، في المواقف الجديدة حيال الجسد وفي العلاقات بين الجنسين.

كل شيء يسير في بداية القرن الواحد والعشرين كما لو كانت هناك حاجة ملحة لتغيير العلاقة بالأشياء والكائنات، وإيجاد بدائل للسيطرة. كان الوجوديون يقولون: «الإنسان يتواجد في المواقف»، لكن هناك شكلان للتواجد في المواقف. إما أن نتصرف داخل العالم كمعلمين ومُلَّاك، أو أن نقيم معه علاقة ود مبنية على الانفتاح والاستقبال. هذان الطريقان المتباعدان يشكلان البديل الأساسي المتاح للبشرية في القرن 21. بدل عقلية الإرادة والتخطيط والقوة والبنائية (constructivisme) التي ألهبت حماس البشرية في القرن العشرين، تتقابل «عقلية الانتباه» التي رسمتها فلسفة سيمون فايل[3]. لم يعد الأمر يتعلق بتغيير العالم بالإرادة، ولكن «بالسماح بوجود» الكائنات والأشياء وذلك بإعطائها اهتمامنا وبجعل وجودنا بجانبها خفيفا.

ما هي إذن المبادئ التي تقوم عليها عقلية الانتباه هاته؟

التمهل، يعلم الإحساس

الأمر يتعلق أولا بالوقت، فأول فعل يجب القيام به لتغيير الحياة الشعورية هو إعطاء الوقت للذات وإبطاء وثيرة الحياة.

---

3 - راجع «الثقالة والغفران»، مجموعة أكورا بوكيت، 1999، ص 133 وما بعدها.

مشاعر الصدمة لا تتحمل الصبر ولا يمكن إشباعها، تتغذى على التتابع الهائج للأحداث، فتقتل الحاضر بارتمائها نحو المتع التي يخبئها المستقبل. مشاعر التأمل، وعلى العكس من ذلك، تتفتح مع مرور الوقت وانقضاء الحاضر، فجو البطء هو الذي يسمح بصياغة المشاعر الهادئة التي تتسلل إلى الروح وتعمل على تنميتها.

إننا نستفيد أكثر من الأشياء عندما نهمل وقت الاستمتاع بها. فلنفكر في المشاعر الرقيقة التي يوفرها للعشاق طريق الصبر في خريطة الحب... التمهل يوسع الفضاء الضيق بين الماضي والمستقبل، فيعطي السمك للحاضر، ويمكن ليس فقط من حضور أكبر في العالم، ولكن إذا أمكننا القول، من حضور أكبر في الحاضر. الإنسان الذي يتمهل في فعل الأشياء يمكنه أن يستخلص العصارة الشعورية في نفس المكان والزمان، أن يتذوق من نكهة الحياة ويستفيد من المشاعر الناعمة للحاضر. إنه يتعرض أقل لخطر الإحساس بالإحباط في المساء، الذي يتضح من العبارة القاسية لفونتونيل: «أيتها السعادة، لم ألحظ وجودك إلا عندما سمعت صوت هروبك».

ممارسو الاسترخاء والتنفس الواعي والتأمل يشهدون على ذلك، يقولون: مجرد تباطؤ نشاطاتنا الحيوية يحسن تلقائيا العلاقة مع الذات ومع العالم. فتصبح أكثر اندماجا وأكثر عمقا. تمارين الاسترخاء والانسياب تحسن من درجة تقبل مجموعة من الاهتزازات التي دفعتنا الحياة الصاحبة إلى تهميشها يقول كارل فريد فون دوركهايم: «الأشياء تخاطبنا إذا منحناها وقتا للإنصات»[4]

---

4 – الروح المُوَجِّهَة، دور النشر ألبين ميشال، 1991، ص: 180.

ويضيف «حكيم الغابة السوداء»[5]، الذي هو أحد مؤسسي التطور الذاتي، النصيحة التالية لكل الذين يودون تقوية إحساسهم: «كل ما تفعلونه، افعلوه ببطء أكثر شيئا ما».

من هنا يأتي تفوق القراءة على استهلاك الصور. المعلومة في الصورة، خصوصا المتحركة، يتم تقديمها كاملة في دفعة واحدة، ولكونها حية وآنية، فهي بالتالي تشجع مشاعر الصدمة. في سنة 1885، عندما عرض لويس لوميير أول فيلم له «وصول قطار إلى محطة لَسْيُوتات»، أصيب المشاهدون بالذعر أمام القاطرة التي كانت تتجه نحوهم، فكانوا يهرعون تحت كراسيهم لتفادي الخطر. يا لها من إشارة! في شكله ومضمونه، تموقع الفيلم الأول في تاريخ السينما داخل إطار مشاعر الصدمة. ففي الشكل، أظهرت الصورة الحركية لأول مرة قدرتها العجيبة على التأثير، وفي المضمون، عَرَض المشهد المصوَّر من طرف لويس لوميير قطارا يسير، أي وسيلة نقل دشنت عصر السرعة، بعد آلاف من السنين، ظل فيها سير الحصان يرسم الحدود لتحركات البشر.

خلال عملية القراءة، تتشكل الصورة الذهنية بصفة تدريجية. فبخلاف الصورة الخارجية التي تنبعث كاملة التكوين، تحتاج الصورة الداخلية إلى الوقت، ويساعد بطء نضجها على ظهور مشاعر عميقة تتفاعل مع الحياة الباطنية.

كان القرن العشرين يتميز بالبحث عن السرعة. نتمنى أن تتوفر في القرن الجديد الحكمة اللازمة لإبطاء كل شيء. الحياة الشعورية لإنسان الغد ستتحسن إذا قام بنسح العبارة الشهيرة لسان جوست حول السعادة[6]، لتصبح: «البطء هو فكرة جديدة في أوروبا».

5-لقب لألفريد فون دوركهايم. (المترجم)

6 - «السعادة هي فكرة جديدة في أوروبا» عبارة لسان جوست كتبها سنة 1794. (المترجم)

الجاهزية كذلك تكمن في اللامبالاة. من أجل الانفتاح على العالم والاهتزاز بطريقة تأملية، يجب التخلي عن المقاصد النفعية. الروح التي عمل بها روسو في مجال النباتات هي نموذجية في هذا الصدد. شغفه بالأغرس منحه أفراحا عميقة، لأنه كان مجردا من كل الحسابات. فجون جاك لم يكن يبحث عن الشهرة ولا عن الغنى ولا عن كسب أعشاب طبية ولا عن جمع مواد لغرض بحث علمي. كانت متعة اكتشاف تنوع الأصناف النباتية وحدها تحركه. يقول في كتابه أحلام اليقظة:

«يوجد في هذا الانشغال الساكن سحر لا يمكن أن نحسه إلا في حالة الهدوء الكامل للعواطف، لكنه يكفي لوحده بعد ذلك لجعل الحياة سعيدة ولطيفة: ولكن بمجرد خلط دافع المصلحة أو الغرور، إما بهدف شغل منصب أو تأليف كتاب، بمجرد انعدام الرغبة في التعلم سوى لغرض التدريس، بمعنى أننا لا نغرس سوى لنصبح كتابا أو أساتذة؛ فإن كل هذا السحر الناعم يختفي، فتصبح النباتات مجرد أدوات لعواطفنا، وتختفي المتعة الحقيقية للبحث، وتصبح غايتنا ليست هي المعرفة وإنما إظهار المعرفة. وبهذا يصبح التواجد في الغابة كتمثيلية على خشبة مسرح ينظر إليه العالم، نسعى من خلالها إلى التألق»[7].

تحكي قصة شرقية أن راهبا ولصا ورساما وبخيلا وحكيما سافروا مجتمعين. عند حول الليل، وجدوا ملجأ داخل كهف.

7- أحلام اليقظة لمتجول وحيد، مجموعة ج. ف فلاماريون، ص: 143.

صاح اللص: «يا له من مخبأ جيد للخارجين عن القانون».

لاحظ البخيل أن المكان مثالي لإخفاء الكنز.

تنهد الرسام وقال: «يا له من منظر غني بالألوان والظلال على الجدران، مناسب لعمل لوحة فنية.

الراهب اقترح ما يلي: «المكان ملائم للتأمل، من الممكن الاعتكاف فيه»

أما الحكيم فقد نطق بهذه الكلمات العادية: «يا له من كهف جميل»[8].

هذه الحكاية هي تربوية. اللص والبخيل هم غرباء عن روح التأمل، ليس هناك شيء مدهش في ذلك. ولكن ماذا بخصوص أولئك الذين يمارسون الفن والروحانية؟ من يشك في كونهم غير مؤهلين للتأمل؟ بيد أن الدرس من الحوار واضح. لا الرسام ولا الراهب ينفتحون على العالم لأنهم يستمرون في تصويره من خلال رغباتهم. وحده الحكيم ذو النظرة المتحررة من أي مشروع، يهتز بحماس حقيقي. هو وحده القادر على تذوق الجمال واستقباله والالتحام معه. الجاهزية تقوم على إلغاء الانتفاع، المجانية المطلقة، و«النرفانا القصدية»[9].

التحلي بالجاهزية يفرض كذلك الاهتمام بما هو بسيط وعادي. اكتساب خاصية التأمل يتحقق من خلال إعادة الاعتبار للأشياء الصغيرة. يجب إعارة الاهتمام لما هو يومي. الأدوات

8- هذه القصة حكاها رينيه هويج في «حوار مع المرئي»، ومذكورة في كريستوس رقم 167، «الاعجاب»، ص: 294.

9 - بمعنى التحرر المطلق من القصدية. (المترجم)

المبتكرة لتوليد الشحنات الشعورية تبعدنا عن الروح التأملية، التي يمكننا الاقتراب منها ببساطة إذا عملنا على تكوين شبكة رقيقة من المشاعر الدقيقة الناتجة عن الاحتكاك بأشياء عادية، وذلك على غرار الكاتب الفرنسي فيليب ديليرم الذي دعا إلى متع الحياة الضئيلة. ليس هناك في هذا الصدد مشهد أكثر إزعاجا من الأطفال والمراهقين المشدودين للوحات ألعابهم، الذين يخصصون أوقات فراغهم للعالم الخيالي. أصبح الإلكترونيك المربي الأساسي بالنسبة لهم. يا له من إهدار لمشاعرهم الفتية! ألا يجدر بهم استغلال تلك الساعات للذهاب للقاء الأشجار والحيوانات؟

ينصح الفيلسوف نيتش بما يلي: «إذا أردتم توجيه شاب إلى طريق الثقافة الحقيقي، احذروا جيدا من كسر الرابط التلقائي الوثيق، ويمكننا القول كذلك الشخصي والفوري، الذي يجمعه بالطبيعة. يجب أن يخالط الكائنات من غابة وصخرة وعاصفة ونسر وزهرة وحيدة ومرج، ويتحدث معها كل واحدة على حدة»[10].

«السماح بكينونة الكائن»

الجاهزية يفترض فيها كذلك التنازل عن القوة. لا يمكننا أن نسلم أنفسنا للعالم وأن ننغمس فيه إذا حصرناه في حدود «الفعل»، كمجال خاضع لسلطتنا. الرغبة في السيطرة تقتل المشاعر الرقيقة.

يمر متجول أمام حديقة، وبطريقة آلية يقطف زهرة. يصيح وهو يشم عطرها «كم هي جميلة!». ولكن بضعة أمتار بعد ذلك، يرميها بدون انتباه. تصرف مفترس! أهكذا يكون الشعور؟ بقطعه

10- «حول مستقبل هيآتنا التدريسية»، «المؤتمر الرابع»، المصدر المذكور، ص 100. كان نيتش حينها أستاذا في جامعة بال وهو فقط في سن الثامنة والعشرين.

لتلك الزهرة، ألم يخرق كذلك مشاعره؟ لكي يتدفق تيار مشاعر التأمل، يجب تقبل وجود أشياء خارجة عن سيطرتنا. يجب القبول بوجود «معطيات» لا تخضع لنشاط الإعداد وسلطة التدمير. معطيات، بمعنى موجودات تم وهبها لنا بمعنى الكلمة، والتي يجب قبولها بناء على ذلك.

إنها النتيجة التي خلص إليها سان جوليان لوسبطاليي الذي عُرضت حياته في الروايات الثلاث لفلوبير. كمراهق، ولع جوليان بفن الصيد. شيئا فشيئا، أصبح جوليان صيادا متعطشا للدم. كان يجري ليل نهار عبر الغابات، ويقضي على جميع الحيوانات التي يصادفها بدون تمييز، بهيجان وحشي، وبشهوة منحرفة. في يوم من الأيام، لقي أيلا فأصابه بسهم في رأسه. قبل الانهيار، اقترب منه الحيوان بهدوء وثبت فيه عينيه الملتهبتين. أمام هذه النظرة، تملك جوليان الرعب والخجل. إنها بداية تغيير عميق في حياته. سريعا، فقدت مشاعر التقتيل القوية كل جاذبية لها في عينيه، فأعطى لنفسه بعد ذلك الفرصة للانغماس في مشاعر من نوع آخر. وهكذا، فإن تغيير نظرته للأشياء دشن عهدا جديدا في حياته الشعورية. جوليان دخل في حياة جديدة، حيث سيتعلم تقبل الاختلاف، ليصل إلى الزهد الذي سيقوده في النهاية إلى القداسة.

الجاهزية تفرض كذلك التخلي عن روح التملك. هل يمكننا الانبهار بالأشياء عندما نكون مشغولين بالرغبة في امتلاكها؟ تريدون الاستمتاع بجمال حديقة أو غابة أو طريق أو بناية؟ لا تكونوا أصحاب ملكيتها، ولا تطمحوا لأن تكونوا كذلك. في هذا الصدد، يمكننا التساؤل هل الثورة الإلكترونية والمعلوماتية لا تشكل خطرا على الإحساس. بفضل «السي دي» (CD)، «السي دي روم»

(CD-ROM)، «الدي في دي» (DVD)، شريط الفيديو، الأنترنيت، الأسلاك، الخواديم، بنوك المعلومات؛ فإن جميع جماليات الطبيعة والفن وجميع عجائب العالم هي الآن تحت إشارتنا. لا يوجد منظر جميل ولا مدينة ولا إنجاز سينمائي ولا قطعة موسيقية ولا متحف ولا لوحة ولا فصيلة حيوانية، إلا ويمكن الوصول الفوري إليها. ليس هناك حقبة أخرى تمت فيها السيطرة على العالم بهذه الطريقة. فبنقرة على فأرة الحاسوب أو مناورة على جهاز الفيديو أو أمر بالتحميل، نستطيع استحضار ثروات العالم. لكن هذه السلطة لها حدودها ووجهها الآخر. ما هي نوعية المشاعر التي يوفرها لنا اكتشاف إبداعات الطبيعة والفن، التي تخضع لرغبتنا؟ ألا تتبخر بذلك طراوة المشاعر؟ بإقصاء الشكوك حول اللقاء وبغتة المفاجأة، وبإلغاء العراقيل والوقت اللازم للتنقل الجسدي، ألا نلغي كذلك الانبهار. تقنية المسح الضوئي هي عدو التأمل.

في مواجهة موقف التسلط والسيطرة، ندعو إلى فلسفة الرقة، التي تدير ظهرها لروح الغلظة. من جهة أخرى، إنه لمن المُطْمَئِن رؤية القيم «المسالمة» كالرقة، الأدب، اللطف، الحنان، التسامح، الذوق، الإنصات والانتباه، تتمتع باهتمام متزايد في أيامنا الحالية. في الجهة المقابلة للديكتاتورية والتطهير العرقي والحروب والجنون التقني، تابع القرن العشرين بشكل خفي صيانة هذه الشعلة الضئيلة من الجاهزية والرقة، إنه الإرث العكسي لهذا القرن الحديدي! القرن 21 لديه مهمة تطبيق سياسة الرقة هاته، التي تقوم على احترام وجود العالم والحفاظ عليه، باختصار «السماح بكينونة الكائن». أسلافنا قاموا بصياغة مبدأ «السماح بالفعل، السماح بالمرور»، وهو من مبادئ اقتصاد السوق. ترجع إلى

القرن 21 مهمة تشجيع «السماح بالكينونة». وكما أن «السماح بالفعل، السماح بالمرور» أعطى دفعة حاسمة للثورة الصناعية في العالم، كذلك السماح بالكينونة سيمكن من التفتح الحر للعالم. اتخاذ موقف مرحب تجاه الكائنات والأشياء، هو بالفعل ما يمكنها من التطور ويسهل انفتاحها.

أكثر من هذا، فإن إيجابية موقف السماح بالكينونة تعزى إلى انطوائه على صفقة ضمنية، حيث ينشأ بين الطرفين تبادل للخدمات. من جهة فإننا نسدي خدمة للعالم بامتناعنا عن إيذائه وباحترامنا لوجوده. عندما نتخذ وضعية إنصات «بسلبية حكيمة»، كما يقول الشاعر ووردزوورث، فإننا نمكن الأشياء والكائنات أن تكون هي ذاتها. هكذا، فإن الطفل الذي نأخذ وقتا للاستماع إليه سيتفتح بطريقة سليمة. لكن بتصرفنا هذا، ألا نسدي خدمة لأنفسنا كذلك؟ في الواقع، فإن انفتاحنا على ما هو خارجي، يسمح لتذبذباته بالوصول إلينا وبتخصيبنا. بصورة واضحة، الأشخاص الذين يتفرغون لأعمال المساعدة والتطوع ومرافقة المرضى والمحتضرين، يشهدون على هذه الاستفادة المتبادلة. يتفقون على أن ما يقدمونه للآخرين هو شيء قيم، ولكنهم يضيفون: «إننا نتلقى مثل ما نعطي، نحن هم المستفيدون الأوائل من تواجدنا بجانب الآخر». بموجب هذه الصفقة الضمنية، فإن الجاهزية هي إذن الوسيلة الأكثر ضمانا للاغتناء. يظهر وكأن العالم يقول: لا تؤذني وفي المقابل سأعرف كيف أحركك. كما كان يقول هايدغر بدقة: ما يجعل إنسانيتنا تزيد، هو كوننا «حراسا للكينونة». إن سماحنا للكائن بالكينونة يكسبنا، بمفارقة، إمكانية الكينونة أكثر.

الفصل الحادي عشر

الإنسان غير الجاهز

لنأخذ الوقت لتحليل بعض العراقيل التي تعترض طريق الجاهزية. هناك في المقام الأول الخوف من المشاعر. التحلي بالجاهزية هو في الواقع تعرض لخطر الاهتزاز من طرف المشاعر، واتخاذ لوضعية معرضة لتأثير العالم، للاكتساح وللغرق، فنكون بذلك في مجازفة. موقف الجاهزية غير مريح لأنه يفتح قناة للتذبذب الشعوري، يؤثر من خلالها العالم الخارجي على الشخص، فيؤدي ذلك إلى تغيير ذاتيته.

خطر الغيرية

إن الخوف الصامت من التواجد في هاته الوضعية الهشة، هو ما يفسر اللجوء للاحتماء داخل مواقف القوة: السلطة، التحكم التقني، السيطرة، الفحص، هي الوسائل التي تتولى جزئيا مهمة حماية الشخص من المشاعر، فتمكنه من تجنب التشويش؛ إنها وسائل دفاعية تعمل كمرهمات واقية من الإشعاعات الآتية من الخارج. إننا نفضل أن نضغط على العالم على أن نتركه يضغط علينا. إننا نحركه حتى نمنعه من تحريكنا.

هذه الملاحظة تنطبق بالخصوص على العلاقات بين الأشخاص، فوجود الآخر يشكل لكل واحد تهديدا بالاضطراب. بشكل عام، فإننا نخشى التورط بتماسنا مع الآخر وهذا ما توحي به كلمة «الغيرية». خصوصية الغيرية هو بالفعل كونها تغيرنا، أي تحولنا. الغيرية تخيفنا لأنها تملك القدرة على تحريكنا وبالتالي إحداث التغيير، ومن هنا تأتي ردات فعلنا الدفاعية؛ فنسارع لتبني موقف القوة لتفادي هذا التحول، ونميل إلى عدم الجاهزية للهروب من التغيير. الميول إلى التأثير في الآخرين وممارسة شيء ما من السلطة عليهم، إلى إخضاعهم والحكم عليهم، توبيخهم أو ببساطة تجنبهم؛ ينبع في الغالب انطلاقا من الخوف.

منذ ثلاثين سنة، قُدِّمَت لأحد أصدقائي دعوة للقاء الأب بيو (الذي تجري عملية تقديسه في الفاتكان)[1]. لقاء هذا الرجل غير العادي كان بالطبع فرصة استثنائية، ولكن صديقي تردد. كان في أوج صعوده المهني، المال والسلطة والشرف، لا شيء كان ينقصه. كان كذلك رجل إيمان وعقيدة، ومدافعا عن القيم النبيلة. لكن الاقتراب من الأب بيو كان بمثابة المغامرة ببعث الشك في حياة مطمئنة. لقد استشعر صديقي أن حوارا مع أحد كبار قديسي القرن العشرين لن يكون مجرد محادثة عامية، ولكن رجة عميقة وصدمة في حياته كلها. كان سيتعرض للذهول والتحول والاهتزاز، وسيُدفع للحركة واختلال التوازن والتغيير الاضطراري. كان سيقترب من نار متوقدة ستحوق في ثانية كل المكتسبات التي يُقَدِّرها. كان سيدعى إلى ارتباط روحي مطلق. ربما هذا كان صعبا على رجل لم يتجاوز عمره الأربعين سنة. لقد قام برفض الدعوة.

1- بالفعل تم تقديس الأب بيو في سنة 2002. (المترجم)

عائق آخر في طريق الجاهزية يكمن في الاعتقاد باكتفائية الذات. لا يمكننا أن نكون منفتحين على العالم إذا كنا مقتنعين بأننا نحقق الاكتفاء الذاتي لأنفسنا. في هذا الخصوص، لاحظ جابرييل مارسيل وجود حالة فيزيولوجية يكون فيها الإنسان عاجزا عن استقبال أي جديد من الوجود لكونه مكتف بذاته، ولهذا كان جابرييل مارسيل يبدي الكثير من التحفظ على حالة الانفتاح التي نصفها بعبارة «حالة التوافق» أو «حالة الاندماج»؛ فبالنسبة للمعنى السائد، تعني هذه العبارة التوازن النفسي الكامل، التناغم مع الذات، التحقيق الكامل للشخصية. من منا لا يتطلع إلى الاكتمال والكمال؟ ومع ذلك، يؤكد جابرييل مارسيل على أن حالة «التوافق» و»الاندماج» تسجل انغلاقا مستكبرا وعداء للغيرية وانعداما للجاهزية تجاه العالم. هذه الحالة تتنافى مع «الوظيفة الأساسية للشخص التي هي الخروج من الذاتية»[2]. يتابع جابرييل مارسيل بالقول أن الأمر ينطبق كذلك على الاستقلالية. كان هذا الفيلسوف يعلم أن بمهاجمته للاستقلالية، فإنه يشن هجوما مدمرا للأيقونات على إحدى القيم الأكثر حظوة في حضارتنا. يؤكد على وجود أساليب للتعبير عن الاستقلالية تمنع العالم والكائنات من التأثير فينا، ومن غمرنا، فلا نكون جاهزين إلا عند التخلي عن هاته الاستقلالية المغرورة، وقبولنا بالارتباط بالعالم هو ما يمكننا من استقبال تذبذباته. إذا اعترفنا بعدم كمالنا ونقصاننا، إذا وافقنا على أن نكون منفتحين ومكشوفين ومستعدين للمواجهة، فإن العالم سيؤثر فينا. التعددية تطور الإحساس أكثر مما تفعله الاستقلالية.

2- «كتابات في الفلسفة الملموسة»، الكاتب المذكور أعلاه، ص: 79.

العائق الثالث للجاهزية ينتج عن مفهوم معين للحياة الباطنية. معاصرونا أصبحوا مهتمين أكثر فأكثر بالحياة الباطنية ويرغبون في استرجاعها. في عالم قدم تنازلات كبيرة للمادية كعالمنا، مشروع كهذا لا يمكن إلا تزكيته. ولكن لا ينبغي لهذا العمل الإصلاحي أن يقوم على أسس هشة، حيث أن هناك طريقة لتصور الحياة الباطنية تزيح مشاعر التأمل وتهدد بنزع الجاهزية؛ نقصد هنا الميول إلى اعتبار الحياة الباطنية ذاتية الاكتفاء، فكثير من أنصار التأمل يتصورون أن محتواهم الداخلي هو عبارة عن ثروة سابقة الوجود. على طريقة لايبتنس، يعتبرون روحهم كوحدة قادرة على «استنباط كل شيء من عمقها الذاتي». إنهم يظنون أن هناك جواهر منقطعة النظير مدفونة في قرارة ذاتيتهم. باقتباس عبارة نيتش نقول أن هؤلاء المتأملون يراهنون على وجود «عالم خلفي» موجود في أعماق ذاتهم. المفاهيم التي تسود في مجال تطوير الشخصية، تشهد بشعبية هذا المعتقد: الأنا الأساسي (عبارة لكارل فون دوركهايم)، الأنا النموذج المصغر للعالم (في الروحانيات)، الأنا المتعدي للذات (عند ستانيسلاف جروف)، النفس (عند يونج). يعتقد أنصار التأمل هؤلاء أنه يكفي الغوص داخل هذا الأنا الرئيسي، هاته الروح الأساسية، واستغلال الرواسب الموجودة هناك. ادخلوا إلى نفوسكم، يقال للمتأملين، غوصوا داخل أناكم، وستكتشفون كنوزا. إحدى التوجهات الحالية لممارسات التأمل ترتكز على الانغلاق هكذا في داخل الأنا وتلبية الحاجة من النفس.

ليس هناك شك أن مثل هاته الممارسات للحياة الباطنية هي مريحة، وتملك خصائص علاجية، كما أن حالة الانسياب هاته تهدئ وتفيد. ولكن في ظل هذا التصور، ألا يتم تفقير الحياة

الباطنية؟ عندما نغوص في قلب الذات مع التجرد من العالم، ألا نلتحم في النهاية مع الفراغ؟ ألا ندخل في تجربة العدم؟ الحياة الباطنية تكون في الغالب بئيسة عندما يتم استغلالها داخل إطار التأمل، كما لاحظ شونفور[3].

الروح والجماليات الخارجية

ماذا لو كانت الحياة الباطنية الحقيقية شيئا آخر؟ في الحقيقة، الذاتية التي تدير ظهرها لما هو خارجي هي صورة هزلية للذاتية. فلنتخلص من النظرة الخاطئة التي تطبع بعض الممارسات التأملية. فالحياة الباطنية تتطلب جاهزية وانتباه تجاه العالم، هي بحاجة إلى التعبئة والانفتاح على الخارج. إطلالة بسيطة على العمق الذاتي تكشف، بالفعل، أن ما يشكل ثروة كياننا الداخلي يتكون، بالأساس، من ذكريات اللحظات التي كنا فيها متواجدين في العالم بصفة تأملية. حياتنا الباطنية هي نتاج الطمي والرواسب التي خلفتها المشاعر المحسوسة عند اتصالنا بالعالم: تبادل النظرات مع كائن محبوب، موسيقى مسموعة بابتهاج، لحظة من السرحان الحسي في جمال حديقة، احتضان بشوق، حنان محسوس أمام أطفال يلعبون. الحياة الباطنية هي نوعا ما امتداد لهاته الأحاسيس، تكثيف لهاته المشاعر الصافية التي تظل تؤثر فينا بعد اختفاء المتسبب فيها. ثروة الحياة الباطنية هي انعكاس «للحظات عالية الجودة» التزمنا فيها بالجاهزية، كما لو كانت هناك خيمياء Alchimie نفسية أنتجت جواهر داخلية انطلاقا من بريقها.

3-مذكور في كتاب بيير تراهار «الحياة الباطنية»، دار النشر بوافين، 1947، ص 24.

الروح لا تستمد شيئا من داخلها الخاص: إنها تصنع نفسها انطلاقا من الجماليات الخارجية. بالطبع هي ليست ذاتية الاكتفاء، إنما هي الظل المحمل انطلاقا من العالم؛ إنها مصباح سحري تعرض فيه الصور الخارجية مرفوقة باهتزازتها الشعورية. الحديث عن «تجربة داخلية» هو استعمال لغوي متعسف.

إنها عبارة عملية ولكنها غير دقيقة. التجربة الداخلية أسيئت بالفعل تسميتها، لأنه كما لاحظ إمانويل مونييه «يتم خوضها في كل أرجاء العالم»[4]. ليس هناك شيء جوهري في الحياة الباطنية، فكل شيء مبني على الترابط. لا يوجد عالم خلفي، يوجد فقط وعي بالعالم. الأنا ليس غنيا بذاته نفسها، ولكن بما يأخذه من العالم وبما يلتقطه من المشاعر وبجاهزيته الحماسية. الباطن الحقيقي يسخر من الباطن.

بالرجوع لإحدى الصفحات من كتاب مذكرات لما بعد الموت لشاطوبريان، نجد الأسطر التالية: «بدخولي إلى كياني الداخلي كما يدخل أرنب إلى مسكنه، أبدأ من جديد بتأمل الورقة التي تهتز أو غصين العشب الذي يميل»[5]. هذا يجعل القارئ يقفز ويعيد القراءة. شاطوبريان يقول أنه بدخوله في أعماق نفسه، فإنه لا يكتشف ثروة «داخلية»، ثورة شخصية، نفسا عميقة، أنا رئيسيا، إذا ماذا؟ ... مجرد ورقة شجرة، غصين عشب، بمعنى الوجود الذي لا يزال نابضا للأشياء الخارجية. ما يحمله الكيان الداخلي هو الطمي المتموضع الناتج عن نظرة كانت موجهة نحو الخارج.

4- «التشخيصية»le personnalisme، دار النشر الصحافة الجامعية الفرنسية (PUF)، مجموعة ماذا أعرف، ص: 56.

5- «مذكرات لما بعد الموت»، الجزء الأول، كتاب الجيب، ص 440.

شاطوبريان قام بالدفاع عن الجاهزية وتصويرها في جملتين بسيطتين. بإعادة صياغة العبارة المشهورة للتجريبيين les empiristes : «لا وجود لشيء داخل العقل لم يسبقه وجود داخل الإحساس»، يمكننا القول: لا وجود لشيء داخل الحياة الباطنية لم يسبق للحواس أن التقطته وتأملته داخل حرارة المشاعر.

لكل من ينطلقون في مغامرة الحياة الباطنية، يمكننا توجيه النصيحة التالية: اخرجوا من باطنكم إذا كنتم تريدون إثراء باطنكم. هناك ما هو أحسن من ممارسة التأمل الذاتي، فاسترجاع الحياة الباطنية لا يمكن تحقيقه بهذه الطريقة، ولكن على العكس من ذلك، بالانتباه لما هو ليس بذاتي. بدل الدخول في أنفسكم، كونوا جاهزين لما يحيط بكم، ابقوا على السطح وعلى واجهة العالم، كونوا كمرايا عاكسة لصورته، اتركوا اهتزازاته تصل إليكم. انشروا نفوسكم في الخارج، تحلوا «بالسلبية الحكيمة» التي ينصح بها ووردزوورت، ضعوا أنفسكم بهدوء تحت تصرف الأشياء والكائنات[6].

جرة الذهب

هناك حكاية للصغار تصور بطريقة جميلة فكرة الانتباه هاته. إنها القصة التقليدية لملك وعد بتزويج ابنته للمتقدم الذي سيجتاز اختبارا صعبا. ينص الاختبار على الإمساك بجرة ذهب يظهر لمعانها في قاع حوض مائي. غطس الشبان الأكثر شجاعة والأكثر براعة في المملكة بالتتابع في الماء، ولكن دون جدوى: كانوا بمجرد

6- في مدينة باري لومونيال، طرح كاهن من جمعية دولَمَانْويل ذائعة الصيت، خلال فترة تقاعد روحي، السؤال التالي على المتقاعدين: «هل انتبهتم للأشجار والأزهار التي تحيط بكنيستكم؟». كان تعلم المشاهدة بالنسبة له القاعدة الأولى في الحياة الباطنية.

وصولهم إلى القاع يعجزن عن الإمساك بالجرة، رغم كونهم كانوا يرونها بوضوح عند انحنائهم على السطح. الواحد تلو الآخر، كان الموت هو جزاء هؤلاء المترشحين التعساء.

تحدث شاب عن هاته الأحداث إلى والده المسن الذي كان أعمى، فسأله هذا الأخير: هل هناك شيء على ضفة الحوض؟

هناك بالفعل شجرة، أجاب الابن.

اوصفها لي.

إنها شجرة مورقة بأغصان طويلة، تشكل قبة فوق ماء الحوض.

إذن رد الأب، سأكشف لك مفتاح الأحجية. الجرة ليست في الماء، إنها ببساطة معلقة على أحد أغصان الشجرة. ما تراه في قعر الحوض هو مجرد انعكاس لها.

الرجل المسن الأعمى خمن بطريقة صحيحة. مضى ولده في الحال إلى بلاط الملك، وأمام دهشة الجميع، وعوض الغوص في الماء، تسلق الشجرة وهناك اكتشف جره الذهب المخبأة بعناية داخل الكتلة الورقية الغليظة؛ فكان هو من تزوج ابنة الملك.

هاته القصة العجيبة هي دعوة لتوجيه الانتباه نحو الأشياء التي تحيط بنا. الماء يمثل داخلنا، الجرة تمثل ثروات العالم المحيط بنا. الحكاية تفيد أن الكنوز التي نظن أنها موجود في داخل الروح تأتي في الحقيقة من العالم الخارجي. الثروات الداخلية هي مجرد انعكاسات لجماليات خارجية. بدل الغوص في عمق ذاتنا، لنمسك بجرة الذهب حيث هي، خارج ذاتنا، داخل ما هو خارجي. السعادة تنتظرنا هناك.

الفصل الثاني عشر

شيء من الإعجاب

إذن فلنكن جاهزين. جاهزين، ولكن ليس لأي شيء مهما كان... فهناك أشياء ترفعها وأخرى تحطنا. من المهم استخدام قدرتنا على الانتباه بطريقة مُمَحِّصَة. يجب أن يقابل هاجس جودة التصرف بهاجس مماثل يخص جودة الأشياء التي نضعها تحت أنظارنا؛ هذه الأشياء يجب أن تكون رفيعة ونبيلة، أي جديرة بالإعجاب.

أي شاب مشدود إلى فتاة يعرف غريزيا، بشرط أن يكون صادقا، إذا ما كانت هذه الأخيرة قادرة على رفعه أو حطه، جعله أحسن أو أقبح. المعيار سهل: هل يوجد أم لا في الميول الذي يحس به شيء من الإعجاب؟ إذا كان الرد بالإيجاب، فإن هذا الحب سيرفعه. هذا هو المبدأ الذي نضعه في مدخل هذا الفصل: الشعور يثرينا عندما يتضمن ميلا نحو الإعجاب. إذا كان الإنسان المعاصر يريد تحقيق مشروعه في نشر الثقافة العامة، إذا كان يريد إعادة تشكيل روحه، فعليه أن يشحن حياته الباطنية بالإعجاب، الذي هو خليط من المشاعر ومن الفضائل.

الرجوع للإعجاب يفرض نفسه بضرورة ملحة بالنظر إلى الوضعية الحالية للشباب. فماذا نجعل أطفالنا يرون ويسمعون؟ ومن أي صور ومن أي ترفيهيات يتغذون؟ طرح هذا السؤال يمكن من الكشف عن إحدى علل الحداثة. العديد من المجهودات منكبة على تطوير روح التمدن، الرأي المتبصر، القدرات المنطقية الرياضية، ولكن تكوين الذوق فإنه واقع في إهمال كلي. الراشدون لم يعودوا يمارسون تقريبا أية رقابة لمواجهة الغزو السريع للتلوث البصري والموسيقي والأخلاقي، الذي يجتاح الروح الطفولية. إننا نضاعف بطريقة متناقضة الاحتياطات فيما يخص البيئة والأمن الغذائي، ونطالب باستهلاك أغذية صحية وباستنشاق هواء خال من السموم، ولكن ماذا بخصوص تلوث الذوق؟ من منا يواجه العروض الهدامة، الموسيقى العنيفة، تراجع القراءة، تفقير اللغة، انحراف ألعاب الفيديو وبعض البرامج المشبوهة على موجات إف.إم (FM).

أول انفعال للروح

الإعجاب، الذي يضعه ديكارت في الصف الأول لعواطف الروح[1]، يظهر بداية بالميول إلى ما يفوقنا، كما توحي بذلك الكلمة اللاتينية «Admirari»: حيث «Mirari» تعني الإعجاب، فيما الجذر «ad» يشير إلى «حركة نحو». فالشيء يثير الإعجاب عندما يفوقنا. التأمل إذن هو خضوع باحترام لما هو متفوق. كانط كان يبدي إعجابه بالحقائق السامية في نظره، «السماء ذات النجوم فوقي والقانون الأخلاقي في داخلي»[2]. الفيلسوف الوجداني جابرييل مارسيل ربط الإعجاب بفكرة الوحي، معبرا بذلك عن

1 - «عواطف الروح»، (المقال 53)، في مجموعة مكتبة البْلِيَاد، ص 723

2- «نقد العقل العملي»، ترجمة بيكاي، دار النشر الصحافة الفرنسية PUF ، ص 173

ميوله إلى السمو. كتب أن في الإعجاب: «شيء ما يُكشف لنا [...] أفكار الإعجاب والوحي مرتبطة بعضها ببعض»[3].

الحركة التصاعدية التي تحرك الإعجاب هي ذات صلة بالإيمان؛ فالإعجاب، فيما يخص المستوى الدنيوي، هو الإحساس الأكثر اقترابا من الحماس الديني. الألماني غوته لخص فلسفته في الإعجاب -وفلسفته ككل- في عبارة ذات رنين ديني هي «الخشوع للعالم»[4] (Weltfrommigkeit). كان الرجل العظيم من فايمار يتساءل: «من أكون أنا؟ ماذا صنعت؟ لقد تلقيت كل شيء واستقبلت كل شيء واستوعبت كل شيء أمكنني التقاطه». هذا الاعتراف يوضح أنه إلى الجانب الإيماني ينضاف عنصر الامتنان. الإعجاب يجمع بين المديح النابع من الافتتان، الإحساس بالعرفان، الخشوع الديني، والشكر. الإنسان المأخوذ بالإعجاب يشكر العالم، نوعا ما، على إمداده بذلك الشيء. كان هايدغر يقول، مسترجعا عبارة تقية من القرن السابع عشر: «التفكير هو شكر» (Denken ist Danken). من كلمة لأخرى، ليس هناك سوى تغيير بسيط لحرف واحد[5]. التفكير هو في نفس الوقت اهتزاز باستمتاع وشكر للعالم على الخيرات التي يمدنا بها. روسو صور جولي كروح ميالة للإعجاب، لكونها تعرف تقدير النعم الممنوحة من الله بقدرها الحقيقي. نقرأ في هيلويز الجديدة: «بالنسبة لجولي، الكون ككل ليس سوى مواضيع للتودد والعرفان: هي في كل مكان تتلقى اليد الكريمة للعناية الإلهية»[6].

3- كتابات في الفلسفة المجردة .المرجع المذكور أعلاه، ص 77

4-المرجع ليشتنبير، «غوته»، دور النشر المجلة الجديدة الناقدة، 1939، ص179

5- باللغة الألمانية (المترجم)

6- جولي أو هيلوويز الجديدة، الجزء الخامس، الرسالة الخامسة، ص 577

موضوع الإعجاب يعرف كذلك بالميزة التالية: ثروته لا تنقطع من نظرة واحدة، ولكن تتكشف بارتياد صبور وقراءة تدريجية. موضوع الإعجاب يضم معان متعددة وغزيرة، وهو ما يفسر الإحساس الذي ينتابنا عند وجوده بعدم القدرة على «الملل منه». ميشيل كريبو يلاحظ أن الإعجاب هو دائما تجربة متعددة المعاني[7]. من هذا المنظور، فإن الإله بالنسبة للمؤمن هو الأحق بالإعجاب، لأن طبيعته لا يمكن تبصرها سوى ببحث لامتناهي؛ كذلك العالم المتحمس لا يمل أبدا من تأمل المعادن والبلورات والأجسام الدقيقة والحشرات التي تظهر له عبر عدسة الميكروسكوب. والشخص يكون جديرا بالإعجاب إذا اكتشفنا بالتعمق في حياته أو في عمله، أن هناك أسباب متعددة تجعلنا نمدح طبعه أو فضائله أو شرفه أو عبقريته.

أدوات الحياة اليومية هي كذلك بإمكانها أن تثير الإعجاب لكونها تحمل معان متعددة. فبالنسبة لمن يأخذ الوقت للنظر، فإن الأشياء العادية تنطوي على حزمة من المعاني المبهمة في نظرتها الأولى. كما يوضح ذلك هايدغر في كتابه «الشيء»[8]. يقترح هايدغر اعتبار جرة عادية، فيتساءل عما يمكن الإعجاب به في هذا الشيء عديم الأهمية. لكن هايدغر يلاحظ أن غايتها وفائدتها لا تنحصر في حدود كيانها، فسكب سائل ما ليس مجرد تحويل من إناء إلى آخر؛ لقد أظهر هايدغر بتفصيل دقيق تعدد المعاني التي تختبأ في بساطة السكب. في تلك الأداة العادية هناك حضور ملتحم

---

7 - مجلة «كريستوس»، «الإعجاب» (عدد يوليوز1995) ص273، راجع كذلك لنفس الكاتب «قوة الإعجاب، بطريقة أخرى»، 1988

8 - «كتابات وندوات»، دار النشر كليمار، 1958، من ص 203 إلى ص211. «نحن نتّبِع ألان يوتو»، هايدغر، دار النشر الصحافة الفرنسية 1989 ، (PUF)، ص 53

للأرض والسماء والآلهة والبشر، يحلله هايدغر في استحضار شعري، هو أحد أجمل الدعوات للإعجاب؛ فيكتب: «في الماء المسكوب يتخلد المنبع . في المنبع تصبح الصخور حاضرة، وفي هذه الأخيرة السكون العميق للأرض التي تتلقى من السماء المطر والندى. عرس السماء والأرض موجود داخل ماء المنبع ». ويتابع هايدغر بالقول أن ما نقدمه هو ليس بسائل محايد أو عادي، وإنما هو السائل الموجه للمخلوقات، أو عندما يكتمل السكب خصوصا، الشراب المقدم كقربان للآلهة الأبدية. المخلوقات والآلهة هم إذن كذلك حاضرون في سكب السائل المقدم في شراب القربان: «في سكب السائل المقدم، تكون الأرض والسماء والآلهة والمخلوقات كلها حاضرة». بصفة عامة: «الشيء يبسط وجوده بالاتحاد، وفي هذا الاتحاد تتآلف الأرض والسماء والآلهة والمخلوقات». هذه هي العناصر الأربع (quadriparte، كما يسميها هايدغر) التي تجمعها جرة عادية بالنسبة لمن يولي اهتماما بكيانها الباطني، ولمن يجعلها جديرة بالإعجاب. الرسام الهولندي فيرمير استوعب ذلك جيدا، حيث أنه قام برسم لوحة «صاحبة الحليب»...

الباطنية والروحانية

نصل إلى الميزة الأخيرة للإعجاب الذي يختلف عن المشاعر الأخرى بسبب التأثير الذي يمارسه على الحياة الباطنية. نلخص وجه نظرنا في هذا الموضوع بالقول أن له خاصية تحويل الحياة الباطنية إلى حياة روحانية. لكننا نتساءل دائما حول الفرق بين الباطنية والروحانية، من الممكن تقديم التوضيح التالي لهذا المشكل. الحياة الباطنية هي ظاهرة من نوع نفسي. حالات الوعي

التي تدخل في تشكيلها هي ذاتية بالكامل. أما في الحياة الروحانية، فحالات الوعي هي مرتبطة بالقيم والحقائق الخالدة والعالمية، التي تحرر الشخص من خصوصية شخصيته. هذه القيم والحقائق تجعله يشارك في مجال «الروح»، التي تسمو بالأنا الفردي إلى «الأنا الجماعي» الذي يعكس تجربة كل البشر. هكذا، فإن إبداعات الروح تضم الأعمال الأدبية، الشعرية، الفلسفية، النصوص المقدسة والأساطير؛ التي تعبر بشكل رائع عن التطلع إلى السمو في الظروف الإنسانية.

المشاعر التي سميناها مشاعر الإحساس أو مشاعر التأمل لها خاصية إغناء الحياة الباطنية، ولكن الإعجاب يحمل عنصرا إضافيا؛ عن طريق العلاقة التي تجمعه بالعالمية، فإنه يحول الحياة الباطنية إلى حياة روحانية، إنه يفتح لنا مجال الروح. يظهر بوضوح أنه عندما يحس الشخص بالإعجاب، فإنه يتوقع أن يكون الشيء الذي أثاره، يوقظ بالضرورة الإحساس نفسه عند الأشخاص الآخرين. إنه يرفض الاعتراف أن إعجابه مجرد تعبير عن ذوق شخصي واعتباطي، فيصور الشيء الذي أعجبه «كشيء ضروري الاعتراف به من قبل الجميع»، ويشعر بمرارة وربما يغضب إذا أنكره الآخرون؛ وليس بمستبعد كذلك اعتبار عدم اقتسام إحساسه كإساءة. الإعجاب يضم إذن بعدا عالميا، يتميز عن المشاعر الأخرى بإضافته لحافز عالمي داخل الحياة الباطنية، وهذا الحافز يحول الباطنية إلى روحانية. انطلاقا من اللحظة التي يقابل فيها الشخص العالم بموقف من الإعجاب، فإن حياته تسمو إلى حياة روحانية حقيقية.

خلاصة، الجاهزية والإعجاب هما متصلان، لكنهما يقدمان مساهمات مختلفة لانفتاح الإنسان. الجاهزية تمنع الشخص من

الانغلاق على ذاته والاكتفاء بها، إنها تغذي حياته الباطنية بتعريضها لمشاعر آتية من الخارج. لكن الإعجاب يحمل شيئا إضافيا، إنه يفتح الحياة الباطنية على مشاعر حاملة للعالمية، تعمل على تخصيبها ورفعها فوق المستوى الذاتي. للعيش في حياة باطنية غنية ونشيطة، يجب التواجد في العالم في حالة من الجاهزية، للعيش في حياة روحانية، يجب أن يكون هذا التواجد مطعما بالإعجاب.

من أجل رجوع إلى الإعجاب

تلك الاعتبارات هي مطروحة بشدة في وقتنا الحالي، حيث أن هناك تياران يميزان الطابع النفسي الحالي. الناس حاليا لديهم رغبة في إعادة اكتشاف الروحانية، ولكن في نفس الوقت يظهرون نوعا من التحفظ تجاه الإعجاب. هذا التصرف هو متناقض كليا، فلا يمكننا في آن واحد طلب الروحانية ورفض الإعجاب. الجهد اللازم لإصلاح الحياة الروحانية سيظل دون جدوى إذا لم يتم تعزيزه بجهد مواز لإصلاح الإعجاب. الروح لا تتفتح إلا إذا كانت «روحا تتعجب»، وليس كما يريد مفستو[9] «الروح التي تنكر دائما». إن الإعجاب المتناغم مع الحياة والكائنات والأعمال الإبداعية والطبيعة، هو من يثري الإنسان ويمكنه أن يكون أكثر. من أجل الوصول إلى هدفه الروحاني، يجب على الإنسان المعاصر تقويم الإعجاب. إذا أراد أن يكون القرن الواحد والعشرون روحانيا، وأن يتم المشروع الراقي لنشر الثقافة؛ يجب عليه أن يمد حياته الباطنية بهذا الشعور المميز، الذي هو في نفس الوقت فضيلة.

9- مفستو Méphisto، المقصود هنا الشيطان (المترجم).

في الأجواء النفسية الحالية، الإعجاب هو للأسف مهمل، ولا نعطيه المكانة التي يستحقها؛ نحن نتعامل معه بطريقتين متناقضتين، فمرة نهدره، ومرة أخرى نوبخه.

نهدره في حملات إعلامية لا متناهية، فنستغله لضمان تسويق سلع الاستهلاك وكذلك نجعل منه وسيطا في صناعة العروض ووقودا لتغذية عبادة المشاهير. شاهدوا في هذا الصدد عروض برامج التلفزة، خصوصا المنوعات و«عروض الحوارات»، هناك ممارسة تنتشر أكثر فأكثر تقوم على جمع عدد من المشاهدين حول الطاولة التي تجري فيها النقاشات. هذا الجمهور المكون من حشد ضخم من المصفقين، ينفعل ويشارك في الحفلة، فيترك فرحته تنفجر ويعبر عن الشجب ويطلق العنان لمزاجه. لديه ميول عجيب إلى التصفيف، فيضرب الأيادي في كل لحظة ويوزع الأمداح والإطراءات، يُحَيِّي الكلمات الجيدة والدعابات الفاحشة والوقاحات، ويتملق للمنشطين وضيوفهم. هذا التصرف يجسد تماما تبديد الإعجاب الذي نتعاطى له.

أحيانا أخرى، فإننا على العكس من ذلك نوبخه. واحد من العوائق الرئيسية للإعجاب يكمن، في هذا الصدد، في هاجس المساواة. فلكي نتمكن من الإعجاب، يجب الاعتراف بالتفوق، يجب قبول الانحناء أمام العظمة. إذا كان لدينا اعتقاد مسبق أن «كل شيء يمكن محاكاته»، فإن ذلك سيمنعنا من التعجب. إننا نأسف بهذا الخصوص على المسار الذي يتبعه نظامنا التعليمي الذي ألغى طقوس توزيع الجوائز. في الأقسام يسود جو من المساواة الاستبدادية. صفات العظمة والنبوغ والموهبة لم تعد لها قيمة على الإطلاق، والأساتذة يشتكون من كون التلاميذ

النوابغ ينهجون في أغلب الأحيان موقفا من التحفظ الحذر؛ كما يلاحظون أن هؤلاء التلاميذ يمتنعون عن المشاركة حتى لا يوقظوا عداء زملائهم، محاولين بذلك المهادنة للحصول على الصفح عن كونهم الأفضل. منذ وقت قريب، تم التخلي في تعليم اللغة الفرنسية عن تقليد كبار الكتاب «اكتبوا رسالة على طريقة السيدة دوسيفينيي أو «صفوا شخصية من تصميم بالزاك». التعليمات الرسمية الخاصة بالمواد الأدبية تتحدث في أحسن الحالات عن «متعة النص»، أما بخصوص الإعجاب، فهذا شيء غير وارد. فيما يخص قاعدة الاحترام التي تشكل المفتاح الرئيسي للتربية الحضارية، فإنها تفهم على نحو ضيق في الغالب؛ فالاحترام كما يتم تصويره في التطبيقات التعليمية والعلاقات الاجتماعية يميل إلى فرض المساواة، وليس إلى الاعتراف بأي نوع من الأفضلية. «أنا أحترمك» تعني «أنا أعتبرك مساو لي» وليس «أنا أعترف بعظمتك». كأننا نفرض الاحترام لنزيح الحاجة إلى الإعجاب. من السهل العثور على شهادات الاحترام التي يعبر بها أفراد المجتمع المعاصر لبعضهم البعض عن أشكال من اللامبالاة، أقلها «أنا أحترمك» بمعنى «لا يهمني من تكون، كن وافعل ما تريد، على أية حال أنا غير آبه...».

عائق آخر للإعجاب يكمن في عقلية الشك. من الصعب أن ننقاد وراء الحماس وأن نمدح ما يفوقنا، إذا كنا ننظر إلى العالم بارتياب. ولكن الطابع النفسي الحالي يميل إلى النقد أكثر من الافتتان. الرأي العام يعيش على إيقاع تجريد الأشياء وإخضاعها للمحاكمات. الروح العامة تتطبع بالقضاء كل يوم أكثر فأكثر. المثال الأعلى للإنسان المعاصر هو ذاك «الذي ينكر دائما» وليس

«الذي يتعجب دائما»، فبسبب الخوف من الظهور الساذج وعدم الرغبة في الانخداع، يمارس كل واحد الحق في السخرية. بتدقيق أكثر، نجد أن هناك حذرا مزدوجا يخنق الإحساس بالإعجاب؛ حذر بخصوص الموضوع، فنتسائل: هل يستحق هذا الأخير الإعجاب، وهل هو جدير بذلك القدر من الإعجاب الذي يظهر أنه يستحقه؟ الحذر الآخر هو بخصوص الشخص: أليس هناك خطر في أن يتحول الإعجاب إلى عبادة وتعلق خضوعي وهتاف متعصب؟ أليس هذا ما أدى إلى مضاعفات خطيرة في ظل الأنظمة الديكتاتورية للقرن العشرين؟

الإعجاب يربي المواطنة

لنحرر الإعجاب من فخ التبضيع والشك، الهدر والحذر. لنخرجه من سجنه حيث يرقد. لقد أظهرت سنوات 70 و80 لمعاصرينا سحر مذهب المتعة، نأمل إذن أن تجعلنا سنوات ما بعد الألفية الثانية نكتشف من جديد فضائل الإعجاب الذي هو، من بين كل المشاعر القادرة على جعل قلب الإنسان يهتز، الأكثر ملائمة لنشر «الثقافة العامة»cultura animi. تقديس المشاعر سيأخذ شكله الأكثر رقيا بتحوله إلى تقديس للإعجاب. تقديس الإعجاب هو ما يريد هذا الكتاب الدعوة إليه.

من المفروض أن يعود الإعجاب مرة أخرى المربي الرئيسي لإحساسنا، فهو بهذا سيحفز تطوير روحانيتنا (رأينا ذلك أعلاه)، ويعزز الرابط الاجتماعي. فالإحساس بالإعجاب الذي ينمي الروحانية، ينمي كذلك المواطنة. إنه يساعدنا على أن نكون اجتماعيين أكثر ومتحدين أكثر. فلندقق في هذه النقطة الأخيرة قبل غلق هذا الكتاب.

على أي شيء يرتكز الترابط الاجتماعي؟ بداية على أشخاص أحرار ومتساوين في الحقوق، كما أظهر ذلك هوبز، لوك وروسو. الترابط الاجتماعي يتعلق كذلك، كما أشار إلى ذلك بوركن هابيرماس، بقدرتنا على التواصل وتبادل وجهات النظر وحل الخلافات. إضافة إلى هذا، فإنه يتطلب عنصرا ذو طابع عاطفي: التجمعات الشعورية الكبرى التي تستوقف الحياة الجماعية، أفراح الحشود وأحزانها، مخاوفها وهيجانها، حفلاتها؛ كل هذا يشهد بعمقٍ تلك الحاجة. لكن عنصرا رابعا ضروري للحم الرابط الاجتماعي. يجب أن يكون هناك شيء رفيع يجعل الأشخاص يهتزون وينزعهم من ذاتهم. أليس هذا، بالضبط، الدور الذي يلعبه الإعجاب المشترك؟ من بين كل المشاعر، هذا الأخير هو الوحيد القادر على ربط الأشخاص وفي نفس الوقت رفعهم، إنه يعزز الرابط الاجتماعي بشكل أكثر صلابة من المشاعر العادية، حيث أنه يمده بطابع روحاني. قوة الإعجاب تكمن في جمع الكائنات داخل مجتمع روحاني.

هذا يتماشى مع عبارة الكاتب الفرنسي إرنست رينان «الأمة هي روح». لن نخون فكرة رينان إذا قمنا بصياغتها كالتالي: «الإعجاب المشترك ضروري لتوثيق الترابط الاجتماعي». يكون للأمة روحا فقط عندما يحافظ الأشخاص على احترام ورع لأرضهم وتاريخهم وتراثهم، بالإضافة إلى الشخصيات العظيمة الفنية والأدبية والسياسية والصناعية والعسكرية التي تمجد ماضيهم. هذا الحماس وهذا التقديس المشترك يشكل الأساس الروحي للأمة. لهذا فإن الإعجاب يجب أن يصبح من جديد

المربي الأسمى لمواطنتنا وفي نفس الوقت لإحساسنا، وهو الذي يجب التوجه إليه لتكليفه بإصلاح أخلاقنا. إذا أراد شعبنا أن يحتفظ بهويته، إذا أراد أن يكون له مستقبل، فعليه أن يصلح سلسلة الإعجاب التي تربط كخيط غير مرئي، الأجيال الحاضرة بالأجيال السابقة. وكما كتب الفيلسوف والتر بنيامين: «الماضي يفرض نفسه، لا يمكن لأحد أن يتجاهل إشاراته».

الإبسيتاريون

إذن، فلنكن إبسيتاريين. كان الإبسيتاريون قديما حركة دينية، عرفوا خصوصا من خلال رسالة كتبها غوته إلى سولبيس بواسيير[10]، وكان عمره حينها أربعين سنة، لم يكن غوته مرتبطا كليا بأية عقيدة دينية، ولم تستهوه أية عبادة. وفي أحد الأيام بدأ يسمع عن طائفة الإبسيتاريين، التي كانت لهم عقيدة بسيطة، حيث يصفهم غوته على أنهم «كانوا يبدون استعدادهم لتقدير ولتقديس وللإعجاب بكل شيء رائع وكامل يتبادر إلى علمهم»[11]. لا اليهود، ولا النصارى، ولا الملاحدة، ولكن الإبسيتاريون كان شعارهم الوحيد هو الإعجاب. عقيدتهم كانت قائمة على الخشوع أمام كل ما هو سام والافتتان بما هو جميل. غوته عرف سريعا أن هؤلاء الإبسيتاريون هم أخوته الروحيون. يُسِر لمراسله بإحساسه بالحسرة على عدم معرفته في وقت مبكر بهذه الطائفة، التي يتلائم مثلها الأعلى كليا مع نظرية «الخشوع للعالم»

10- راجع هنري ليشتنبركر، المصدر المذكور سابقا، ص: 226.

11 -نفس المصدر.

(Weltfrommigkeit) التي كان يدعو إليها. يتابع : «هذا الاكتشاف بعث لي شعاعا من الفرح في عهد مظلم، فقد أحسست أنني خلال حياتي كلها لازمت التصرف كإبسيتاري.

نحن كذلك، رجالا ونساء في بداية القرن الواحد والعشرين، نجتاز عهدا مظلما. ولكن تقديس الإعجاب يمكن أن ينقدنا.

خلاصة

فك الارتباط بين الإحساس والاهتياج

هدف هذا الكتاب كان هو إظهار أن المجتمع أصبح مجتاحا بحركات قوية وهو ما ينتج عنه تفعيل للحياة الشعورية. إننا نلج عصر المشاعر حيث يعلن الإنسان المعاصر: «فلتهتز روحي لكل ذبذبات العالم»، وهكذا فإن الأموسابيانسHomo sapiens يترك مكانه للأموسنتيانس Homo sentiens.

ولكن، وكما رأينا، فإن هذا الرجوع للمشاعر يشكل خطرا وثروة في آن واحد. ثروة، لأنه يخفف من الإفراط في العقلانية؛ خطرا، لأنه يميل إلى إعطاء إحساسنا توجها أحاديا. وبالفعل فإن الإنسان المعاصر يقوم في مجال المشاعر باختيارات تفسد جودة حياته العاطفية، إنه يتخلى عن المشاعر الهادئة لصالح مشاعر الصدمة والتجارب العنيفة والارتجاجات المتراكمة مع هيجان شرِه؛ حتى أن «تحرير المشاعر» يكاد يتحول من مسألة محترمة إلى طلب غوغائي «بالمزيد من الأدرينالين».

هكذا يظهر التناقض التالي: معاصرونا ينفعلون كثيرا، لكنهم لم يعودوا يعرفون كيف يحسون. إنهم هائجون أكثر

فأكثر وحساسون أقل فأقل. هناك واقع ملموس يكمن في كون الإحساس لم يعد بتاتا مبجلا في أيامنا الحالية، إلى حد أن «التعبير العادي لإحساس ما سيصبح عما قريب الفعل الأكثر خروجا عن المألوف عمليا، الذي يمكننا تصوره داخل الفضاء التواصلي»[12].

لهذا يجب علينا الاعتراف بأن جودة الإحساس تشكل إحدى التحديات الكبرى في عصرنا. على الأرجح فإن الأولوية ليست هي كما ندعي في بعض الأحيان، حماية العقل من صعود اللاعقلانية والدفاع عن الأنوار ضد الظلامية، فنظامنا التعليمي يعطي في هذا الصدد حيزا كافيا للعقلانية والمنطق والرياضيات والفيزياء. تشير الإحصائيات أن تلاميذ الإعدادي والثانوي يخصصون في المتوسط خمس ساعات في اليوم للعلوم، مما يجعل هؤلاء المراهقين لا يرغبون في شيء آخر – وكيف يمكننا أن نلومهم على ذلك–سوى الترويح عن النفس بألعاب الفيديو والرسوم المتحركة والأفلام والموسيقى الصاخبة. التربية المتحررة في أيامنا الحالية تعاني من اختلال عميق. الكثير من المجهودات مسخرة لتشجيع صحوة العقل، في حين أن مجال الإحساس يبدو وكأنه يتحول إلى حقل شاسع حيث تنمو الأعشاب العشوائية. ما هي الأشياء والأعمال والعروض التي تجعلنا نرتعش؟ هذا السؤال على الرغم من كونه جوهريا، لا يتم أبدا التطرق إليه. أمام عبادة المشاعر التي تستقطب هذا العدد الكبير من الأنصار، من الضروري القيام بمعارضة مدمرة للأيقونات، فلا يجب التردد في قول أن هناك استعمال جيد وآخر سيء للمشاعر؛ هناك مشاعر تحطنا وهناك أخرى ترفعنا، بعضها يفقرنا وبعضها يغنينا. هذا

---

12 - نظرية الانحراف، فيرتيكال، 2001 ، ص 85

التمييز بين نظامين متعارضين للحياة العاطفية هو ما يشكل البديل الحقيقي لواقعنا الحالي. عدم الفصل الدقيق بين خصائصهما يوشك أن يقود رجوع المشاعر سريعا نحو البربرية.

كيف نقاوم هذا التقهقر في الإحساس؟ من المهم أولا أن نتخلص من الخلط المترسخ في كثير من النفوس بين الإنسان الشعوري والإنسان الهائج. في خضم العزف الصاخب لأحاسيسنا القوية، يجب أن نسعى إلى إيقاظ الشاعر الذي ينام بداخل كل واحد منا، وأن نوجه له نفس دعوة ألفريد دو موسي: «أيها الشاعر خذ عودك». نعم إننا نحتاج إلى شاعرية حقيقية وليس إلى الأدرينالين. لنفسخ العقد البائس الذي تم ربطه بين الإحساس والاصطناعية، لنصلح قدرتا على الاهتزاز لما هو طبيعي ولما هو جميل. عندما نقول: «حرروا مشاعركم»، فإننا نقصد تحريرها من الأشياء الزائفة التي تستأثر بها ومن العروض التي تشوهها ومن التخيلات التي تفسدها.

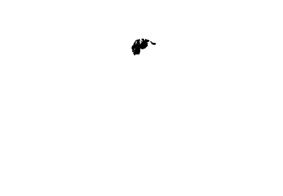
منذ مائتين وخمسين عاما، غادر سان برو ضفاف بحيرة ليمان للذهاب إلى باريس، كانت المرة الأولى التي يكتشف فيها عاصمتنا. ما إن وصل حتى أحس بثقل استيلاب غريب. أخذ يندب كون هذه المدينة الفريسة للإثارة، لا يعترف فيها بحقوق الإحساس، فأمسك بريشته ليكتب لجولي رسالة يمكن أن تنطبق كلمة بكلمة على مجتمعنا المعاصر: «بدأت أشعر بالخبل لكون هذه الحياة الهائجة تطمس أولئك الذين يعيشونها، وحل بي دوار شبيه بذلك الذي يحس به شخص عرضت أمام عينيه العديد من الأشياء بطريقة سريعة. قلبي لا يتعلق بأي شيء من كل الأشياء

التي تشد انتباهي، ولكن كلها مجتمعة تشوش وتعطل أحاسيسي، لدرجة أنني أنسى في بعض اللحظات من أكون».

«في كل يوم عند خروجي من مسكني، أغلق على أحاسيسي بالمفتاح، فأكون مستعدا لتلقي أحاسيس أخرى تلائم الأشياء الطائشة التي تنتظرني»[13].

كمثل عاشق جولي، نحن مغمورون بمشاعر مزيفة، فنحن كذلك نغلق على أحاسيسنا بالمفتاح. لكن روسو يخبرنا أن بطله استطاع تدارك نفسه، فرفض هذا الاستبداد واستطاع أن يحرر نفسه. ما الذي يمنعنا من القيام بنفس الشيء؟

13 - «جولي أوهيلوويز الجديدة». الجزء الثاني، الرسالة السابعة عشرة، ص :232.



بيبليوغرافيا

- **André (Christophe)** et **Lelord (François)**, *La Force des émotions*, Odile Jacob, 2001.
- **Chateaubriand (René de)**, *Mémoire d'outre-tombe.*
- **Cosnier (Jacques),** *Psychologie des émotions et des sentiments*, Retz, 1994.
- **Crépu (Michel)**, *La Force de l'admiration*, Autrement, 1988.
- **Damasio (Antonio)**, *L'Erreur de Descartes* : la raison des émotions, Odile Jacob, 1995, et *Le Sentiment même de soir : corps, émotions, conscience*, Odile Jacob, 1999.
- **Descartes (René)**, *Les Passions de l'âme*, in Œuvres et Lettres, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade.
- **Dürckheim (Carlfried von)** : *Le Centre de l'être*, Albin Michel, 1992.
- **Ehrenberg (Alain)**, *L'Individu incertain*, Pluriel, 1999.
- **Elias (Norbert)** : *La Civilisation des mœurs*, Calmann- Lévy, 1991, et - *La Dynamique de l'Occident*, Agora-Pocket, 1990.
- **Foressen (Collectif d'auteurs)**, *La Soif d'émotion* Plon, 1999.
- **Fraisse (Paul)** : « *Les émotions* », in Fraisse et Piager, Traité de psychologie expérimentale, tome V, PUF.
- **Goleman (Daniel)**, *L'Intelligence émotionnelle*, J'ai Lu, 1998.
- **Janov (Arthur)**, *Le Cri primal, Flammarion*, Champs, 1978.
- **Kozstlet (Arthur)**, *Le Cheval dans la locomotive*, Calmann-Lévy, 1947.
- **Leclair (Bertrand)**, *Théorie de la déroute*, Verticales, 2001.
- **Lowen (Alexander)**, *La Joie rerouvée*, Dangles, 1995.
- **Marc (Edmond)**, *Le Guide pratique des nouvelles thérapies*, Retz, 1995.
- **Marcel (Gabriel),** *Essai de philosophie concrète*, Gallimard, « Folio », 1999.

- **Morin (Edgar)**, Le *Paradigme perdu : la nature humaine*, Seuil, 1973.
- **Pagès (Max),** *Trace ou sens : le système émotionnel*, Hommes et groupes, 1986.
-**Rousseau (Jean-Jacques)**, Julie ou la Nouvelle Héloïse.
-Voir aussi les dossiers suivants :
« L'Esprit d'aventure », in L'Express, 4 mai 2000.
« Les secrets de nos émotions », in L'Express, 2 décembre 1999.
« Comprendre les émotions », in Sciences humaines, janvier 1997, sous la direction de J-F. Dortier.
« Que d'émotions ! », in Psychologies Magazine, avril 2001.

فهرس

عبادة المشاعر

يوضح هذا الكتاب مدى تحكم المشاعر في حياة الإنسان المعاصر، ويسلط الضوء على الظروف والأسباب التي جعلتها تلعب دورا مركزيا في جميع مجالات الحياة (الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية، الرياضية...)، الى حد أن الكاتب اعتبر أن المشاعر أصبحت مقدسة ومتخذة شكلا من أشكال العبادة سماها «عبادة المشاعر» : إننا نلج عصر المشاعر حيث يعلن الإنسان المعاصر: «فلتهتز روحي لكل ذبذبات العالم»، وهكذا فإن الأموسابيانسHomo sapiens يترك مكانه للأموسنتيانس Homo sentiens. »

يقوم الكاتب بتحليل هذه الظاهرة تحليلا فلسفيا ونفسيا، ويقسمها إلى نوعين : المشاعر الهائجة والمنفعلة التي سماها مشاعر الصدمة، والمشاعر الهادئة والتأملية التي سماها مشاعر الإحساس. ينتقد الكاتب كون الإنسان المعاصر أصبح يفضل مشاعر الصدمة : « حياتنا العاطفية تعاني من اختلال راجع إلى الإفراط في مشاعر الصدمة والنقص في مشاعر التأمل».، ويخلص إلى ضرورة الرجوع إلى مشاعر الإحساس.

الثمن : 60 درهما



Boulez j.- jules
1889 - 1960



ISBN 9954-670-20-0
9 789954 670200